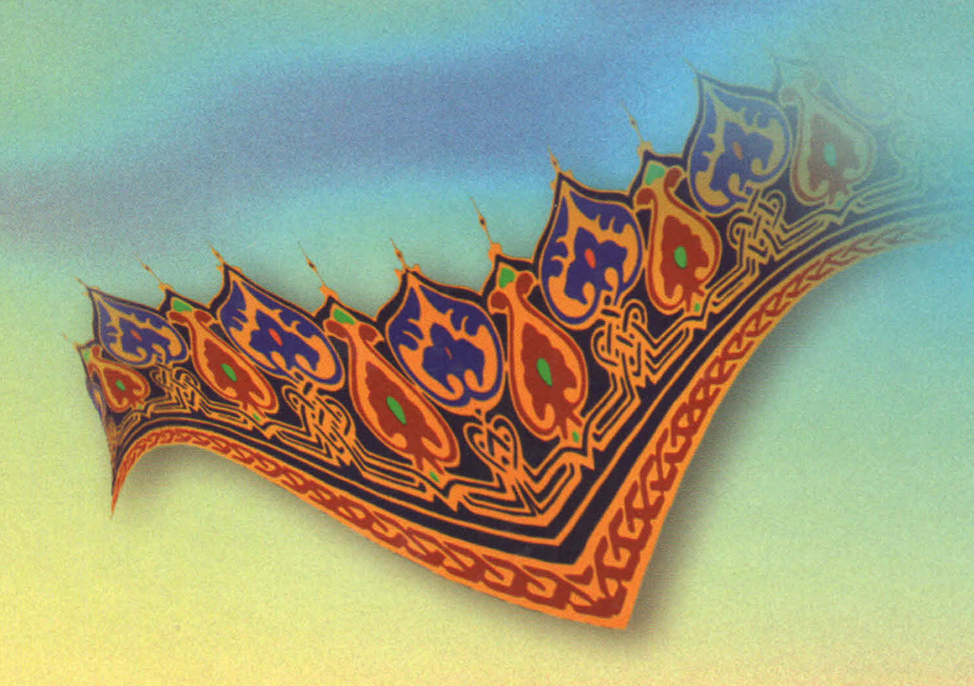
مروءات معاصرة

تأليف

د. محمد بن إبراهيم الحمد



دار ابن خزيمة

ح محمد بن إبراهيم الحمد ، ١٤٣٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحمد، محمد إبراهيم أحمد

مروءات معاصرة./محمد إبراهيم أحمد الحمد.- الرياض،١٤٣٦هـ

١٧٤ ص ، ١٧ x ٢٤ سم

ردمك ٥-٣١-٨٠٣١-٦٠٣-٩٧٨

١- المروءة ٢- الأداب الإسلامية ٣- الأخلاق الإسلامية

أ- العنوان

ديوي ٢١٢ ١٤٣٦/٣٢١٧

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٣٢١٧
ردمك: ٥-٣١-٨٠٣١-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م

دار ابن خزيمة

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض
الملز - شارع الاحساء - غرب حديقة الحيوان
هاتف: ٤٧٣٠٧٨٨ - ٤٧٦٩٩٣٢ - فاكس: ٤٧٦٠٧٩٥

المقـدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه أما بعد:

فإن المروءات هي أساس مكارم الأخلاق، وهي مما اتفقت وتواطأت عليه شرائع الأنبياء -عليهم السلام-.

بل هي محل الإجماع عند سائر الطوائف والأمم؛ فالناس قد يختلفون في الأديان، والمذاهب، وفي السياسة، والاقتصاد وما إلى ذلك.

أما المروءات فهي من المشترك المتفق عليه؛ إذ هي من جملة معالي الأمور وأشرافها، وذلك مما يحبه الله -جل وعلا- ويرضاه لعباده، ومما تألفه نفوس البشر على اختلاف طباعهم وطبقاتهم.

جاء عن الحسن بن علي -رضي الله عنهما- أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب معاليَ الأمورِ وأشرافَها، ويكره سفاسفَها»[1].

١ ـ أخرجه الطبراني في الكبير ١٣١/٣ رقم(٢٨٩٤)، وابن عدي في الكامل ٨٧٩/٣.

قال الألباني في صحيح الجامع (١٨٨٦): صحيح.

إلا أن في سنده خالد بن إياس، قال فيه الحافظ في التقريب: متروك الحديث.

وقد جاء الحديث بلفظ: «إن الله -عز وجل- كريم يحب الكرماء، ويحب معالي الأمور، ويكره سفاسفها».

من حديث سهل بن سعد ﷺ عند الحاكم ٤٨/١، وأبي نعيم في الحلية ٢٢٥/٣، ١٣٣/٨، والطبراني في الكبير ١٨١/٦ رقم(٥٩٢٨)، والخرائطي في مكارم الأخلاق ٥/١ رقم(٢)، والبيهقي في الكبرى ١٩١/١٠. =

هذا وإن لدى كل أمة من الأمم رصيداً ضخماً من هذا القبيل؛ فهو مما تفاخر به، وتدَّعيه، وتحرص على إذاعته، والتغني به .

ولو بحثت - على سبيل المثال - في نقوش الكلدانيين، والأشوريين، وقدماء المصريين ونحوهم - لرأيت مصداق ذلك من تَمَدُّحِهم بالعدل، والإحسان، وما جرى مجرى ذلك من المروءات.

ولا ريب أن لأُمةِ العربِ القِدْحَ المُعَلّى في ذلك الشأن؛ إذ هي مطبوعة على تلك الخلال العالية التي دونتها في أشعارها، وخطبها، وأخبار أيامها.

ولما جاء الإسلام تَمَّم صالح الأخلاق ومكارمها، فأعلى منارَها، وهذب حواشيها، بل بلغ الذروة في التحلي بخلال المروءة؛ فأخرج من رعاة الغنم رعاة الأمم، ومن خمول الجهل والأمية أعلام الهدى والحكمة، فكانت أمة الإسلام خير أمة أخرجت للناس.

وتلك الخيرية عامة في العلم، والعمل، والخُلق، والتعامل، وكل ما هو داخل في قبيل الفضائل والمروءات.

ولو استعرض أحد تاريخ أمة الإسلام، وعظمائها - لوجد ذلك المعلم واضحاً وضوح الشمس في رَأْدِ الضحى.

= قال الحاكم: صحيح الإسناد، وقال الهيثمي في المجمع ١٨٨/٨ : رجاله ثقات، وقال العراقي في حمل الأسفار ٢٥٩/٣ : إسناده صحيح.

وجاء بلفظ: «إن الله جميل يحب الجمال، ويحب معالي الأخلاق، ويكره سفاسفها».

من حديث جابر ﷺ عند الطبراني في الأوسط، كما في مجمع البحرين ٢٠٥/٥ رقم(٢٩٢٦).

قال الهيثمي في المجمع ١٨٨/٨ : وفيه من لم أعرفه.

ولا ريب أن تلك الأخبار الماضية نبراس ذخر، وسبيل للتأسي، وربط لحاضر الأمة بماضيها.

ولكن الاقتصار عليها، وكثرة ذكرها قد يشعر أحياناً بالتكرار، أو السآمة، أو قلة الوقع في النفوس.

فإذا ما كانت تلك الأخبار حاضرة معاصرة، وبعض أهلها يمشون على الأرض، أو كانوا قريبي عهد بالناس ـ كان ذلك أوقع في النفوس، وأعمق في الأثر، ويكون لسان الحال:

نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثلما فعلوا
لسنا وإن شرفت أوائلنا يوماً على الأحساب نتكلُ

وما في هذا الكتاب إنما هو قصص وأخبار في المروءة لأناس معاصرين، بل إن بعضهم ممن يعيش بين ظهرانينا الآن.

وهذه القصص والأخبار وقفتُ عليها، أو سمعتُها من أصحابها، أو من عاينوها.

وكثير منها عرضتُها على أصحابها، أو من يعنيهم أمرها بعد ما انتهيت من إعدادها.

وأكثر هذه القصص لأناس مغمورين، ليسوا من أهل العلم، أو المال، أو الشهرة؛ فالمروءة كامنة في النفوس الزاكية أيّاً كان موقعها، أو مكانتها؛ فليست خاصة بأناس دون غيرهم؛ فقد توجد في الأكابر والوجهاء، وتوجد ـكذلكـ في العامة والسُّوْقَة، وتوجد ـأيضاًـ في كبار السن، وتوجد في الصغار والأحداث.

كما أنها ليست خاصة بالرجال دون النساء ـ كما قد يتوهم بعض الناس ـ حيث يَشْعر من لفظ المروءة أنها تعود في أصلها إلى كلمة مرء، أو أنها تعود إلى كلمة: رجل كما في بعض تعريفاتها القائلة: إن المروءة: هي كمال الرجولية.

بل إنها توجد في الرجال والنساء، وكما أن لفظ المروءة يوصف به الرجل فكذلك توصف به المرأة، سواء من جهة الواقع أو من جهة الاشتقاق؛ فكما يقال: مرء، وامرؤ يقال ـ كذلك ـ: مرأة، وامرأة، بل ويقال: مَرَة ـ كما في الشاهد النحوي ـ :

تقول عرسي وهي لي في عومرةْ بئس امرؤٌ وإنني بئس المرةْ

وكما يقال رجلٌ للذكر يقال ـ كذلك ـ رجُلَة للأنثى كما في قول الأول:

مزَّقوا ثوب فتاتهمُ ولم يراعوا حُرمة الرجُلةْ

وقد تفوق بعض النساءُ الرجال أحياناً على حدِّ قول أبي الطيب المتنبي:

ولو كان النساء كمن فقدنا لَفُضِّلَتِ النساءُ على الرجال

وما التأنيث لاسم الشمس عيبٌ ولا التذكير فخرٌ للهلال

لذا سترى في غضون هذا الكتاب قصصاً وأخباراً لرجال، ونساء، ولكبار، وصغار، ولخاصة، وعامة.

ثم إن المروءة ـكما سياتي- شعب، ومراتب؛ فقد يفتح على بعض الناس منها ما لا يفتح على غيره والعكس؛ فكلما كثرت تفاصيلها في شخص عظمت مروءته، وكلما قَلَّ نصيبه من ذلك قلَّت مروءته، وربما فقدها؛ فصار عديم المروءة.

وربما يقول من يقرأ هذا الكتاب: إن تلك القصص والأخبار تصلح أن تكون في عالم المثال لا في عالم الواقع.

ويقال لهذا: لا لوم عليك ولا تثريب؛ فعنوان هذا الكتاب يوحي بشيء من ذلك؛ فمروءة الكرام ليس لها حد تقف عنده، وكذلك الحال بالنسبة للؤم اللئام.

لذا فإن من أعظم المقاصد لذلك التأليفِ الإطفاءَ من حدةِ الشَّرَه، وعنفوان المادية البحتة، والتخفيف من طغيان النظرة التشاؤمية التي ترى أن الشر هو الأغلب، وأن الخير قد اضمحل أو كاد.

ثم إن من منهجي في إيراد تلك القصص أني قد أذكر أسماء أصحابها، أو من رووها لي؛ وقد لا يناسب ذكرهم؛ حتى لا يقع الحرج؛ فلا غرو أن تذكر الأسماء أحياناً، أو تأتي الحادثة غُفْلاً من الأسماء؛ إذِ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ولقد سبق أن أودعت بعض الكتب نماذج من ذلك القبيل، ولما هممت بتأليف هذا الكتاب رغبت أن يكون بعض النماذج التي ذكرتها في تلك الكتب - وهي قليلة - من جملة ما سأودعه هذا الكتاب، وذلك بعد أن أُوَضِّحَ ما أجملته هناك، أو أبيِّن ما أبهمته، أو أزيد عليه، وقد أبقيه على حاله.

ثم إنني تخففت من العزو، حتى لا أثقلَ الكتاب بكثرة الهوامش، ولأجل ألا أقطعَ على القارئ استرساله.

أما إيراد القصص فلم يَسِرْ على وتيرة واحدة؛ بحيث يجمع كل نظير منها إلى نظيره، وإنما جاءت عفواً هكذا؛ فقد تكون القصة ونظيرتها في موضع واحد، أو في موضعين قريبين من بعض، وقد لا يكون ذلك؛ فالكتاب سار - في مجمله من جهة إيراد القصص - على سجيته.

فهذا هو المنهج الذي سيسير عليه هذا الكتاب، ولسان الحال يقول:

عجباً لِحُضَّاضِ الكرامِ على الذي ... هو فيه محتاجٌ إلى حضَّاضِ
وَصَفَ المكارمَ وهو فيها زاهدٌ ... ورأى الجميلَ وفيه عَنْهُ تغاضي

ويقول معتذراً:

ولكنني أطري الحسام إذا مضى ... وإن كان يومَ الروعِ غيريَ حاملُهْ
وآسى على جيحانَ إذْ غاض ماؤه ... وإن كان ذوداً غيرَ ذوديَ ناهلُهْ

فعسى أن تكون تلك النماذج دافعة لمزيد من البر والإحسان والمروءة؛ وعسى أن يكون في طبعات قادمة لهذا الكتاب زيادة قصص ونماذج مما سأقف عليه، أو يوافيني به من يقف على هذا المُؤَلَّف.

وقبل الدخول في تضاعيف تلك القصص والأخبار يحسن التمهيد لها بمدخل يبين مفهوم المروءة، من حيث تعريفها، ومقوماتها، وآدابها، وآثارها؛ فإلى بيان ذلك كله، والله المستعان، وعليه التكلان، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

د. محمد بن إبراهيم الحمد
الزلفي: ص.ب: ٤٦٠
٢٠ / ١ / ١٤٣٦هـ
جامعة القصيم -كلية الشريعة والدراسات الإسلامية-
قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة
WWW.TOISLAM.NET
ALHAMAD@TOISLAM.NET
@M__ALHAMAD

مدخل في مفهوم المروءة

المروءة خلَّة كريمة، وخصلة شريفة، تَجْري في منشآت الأدباء، ويُتَحدث عنها في علوم الشريعة والسير والأخلاق.

وفيما يلي بيان للمروءة من حيث تعريفها، ومقوماتها، وآدابها، ومظاهرها الصادقة، وفضائلها، وأهمية التربية عليها.

أما تعريف المروءة: فلقد عرفت بتعريفات عديدة لا تكاد تحصر، ولا تنافي بين أكثر تلك التعريفات؛ فالاختلاف فيها لفظي، ومن باب اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد، وأكثر تلك التعريفات إنما هو من قبيل التعريف بالمثال وببعض الأفراد.

فمما قيل في تعريف المروءة ما يلي:

١ـ قيل: هي كمال الرجولية.

٢ـ وقيل: هي صيانةُ النفس عن كل خُلُقٍ رديء.

٣ـ وقال الأحنف بن قيس رحمه الله: المروءة العفة والحرفة.

٤ـ وقال ميمون بن ميمون رحمه الله: أول المروءة: طلاقةُ الوجهِ، والثاني: التودُّدُ، والثالث: قضاء الحوائج.

٥ـ وقال ابن هبيرة رحمه الله: المروءة إصلاح المال، والرَّزانة في المجلس.

٦ـ وقيل: مروءة الرجل صدقُ لسانه، واحتمال عثرات جيرانه، وبذل المعروف لأهل زمانه، وكفُّه الأذى عن أباعده وجيرانه.

٧ـ وقيل: المروءةُ إنصاف الرجلِ مَنْ هو دونه، والسُّمُوُّ إلى مَنْ هو فوقه، والجزاءُ بما أوتي إليه.

٨- وقيل: المروءةُ إذا أُعْطِيتَ شكرتَ، وإذا ابتليت صبرت، وإذا قدرت غفرت، وإذا وعدت أنجزت.

٩- وقيل: المروءة حسن العشرة، وحفظ الفرج، واللسان، وترك ما يعاب به.

١٠- وقيل: هي ألا يأتي الإنسان ما يُعْتَذَر منه مما يحط مرتبته عند أهل الفضل.

١١- وقال أبو العَمَيْثَلِ أبياتاً جَمَعَتْ خلالَ المكارمِ، وموجباتِ السؤدد، وتفاريقَ المروءةِ، قال فيها:

فاصدقْ وعَفَّ وبَرَّ وارفقْ واتئِدْ ... واحْلِمْ ودارِ وكافِ واصبر واشْجَعِ
والطف ولِن وتأنَّ وانْصُرْ واحتملْ ... واحْزِمْ وجِدَّ وحامِ واحملْ وادفعِ
هذا الطريق إلى المكارم مهيعاً ... فاسلك فقد ابصرت قصد المهيع

١٢- وقال بهرام بن بهرام: المروءة اسم جامع للمحاسن كلها.

١٣- وسئل عبدالله الفارسي عنها فقال: التَّألُّفُ، والتَّظَرُّف، والتَّنَظُّفُ، وترك التكلف.

١٤- وقال الشربيني: أحسن ما قيل في تفسير المروءة أنها تخلُّقُ المرء بأخلاق أمثاله من أبناء عصره ممن يراعي مناهج الشرع وآدابه في زمانه ومكانه.

١٥- وقال ابن سلاَّم: ما من شيء يحمل على صلاح الدين والدنيا، ويبعث على شرف الممات والمحيا إلا وهو داخل تحت المروءة.

هذا بعض ما قيل في المروءة، ولا خلاف بين من تحدثوا عنها أن هناك آداباً لا يعلو مقام الرجل في المروءة إلا بالمحافظة عليها.

وبين أيدينا منابع للمروءة عذبة صافية هي: الكتاب الحكيم، والسنة المطهرة، وآثار العظماء من سلفنا الصالح، وما أُثِر عن الحكماء وأهل المروءات.

أما مقومات المروءة وآدابها فكثيرة جداً، وإليك أيها القارئ الكريم جملةً من المقومات والآداب التي يزيد بها معنى المروءة وضوحاً، وترتفع منزلة القائم بها درجات، وهي أشبه برؤوس الأقلام؛ لأن المقام لا يسمح بالتفصيل:

١ ـ أن يكون المرءُ ذا أناةٍ وتُؤَدَةٍ، فلا يبدو في حركته اضطراب أو عجلة، كأن يكثر الالتفات، أو يعجل في مشيته عجلةً خارجة عن حد الاعتدال.

أما السرعةُ بمعنى عدمِ التباطؤ فدليل الحزم، ومن مقومات المروءة.

٢ـ حسن البيان، وجمال المنطق، والترسل في الكلام.

٣ـ حفظ اللسان عن أعراض الناس، وعن ساقط القول ومرذوله.

٤ـ ملاقاة الناس بوجه طلق، ولسان رطب دون بحث عما تكنه صدورهم، وتنطوي عليه سرائرهم.

كان الحسن بن سهل يقول: «المروءة والشرف في البِشْر، ولا يصلح للصَّدْر إلا واسع الصدر».

٥ـ الإصغاء لمن يتحدث، ولو كان حديثه مكروراً معلوماً؛ فإن ذلك يغري بمحبة من يصغي، ويشعر المتحدث بقيمته، وإلى هذا المعنى الجميل يشير أبو تمام في قوله:

من لي بإنسان إذا أغضبته ... وجهلت كان الحلم ردَّ جوابه

وتراه يصغي للحديث بقلبه ... ويسمعه ولعله أدرى به

٦ ـ الصراحة، والترفع عن النفاق والمواربة؛ فلا يبدي لشخص مودة وهو يحمل له العداوة، ولا يشهد له باستقامة السيرة وهو يراه منحرفاً عن سواء السبيل.

والمراد أن صاحب المروءة لا يتخذ الملق والرياء عادة له، أما إذا اقتضت الحكمةُ إخفاءَ بعضِ ما يضمر من نحو الصداقة والعداوة ـ فإن ذلك من مكملات المروءة.

٧ـ ألا تطيش به الولاية في زهو، ولا ينزل به العزل في حسرة.

٨ـ ضبط النفس عند هيجان الغضب، أو دهشة الفرح.

٩ـ الوقوف موقف الاعتدال في السراء والضراء، قال البعيث:

ولست بمفراح إذا الدهر سرني ... ولا جازع من صرْفِهِ المتقلب

وقال عبد العزيز بن زرارة الكلابي:

قد عشت في الدهر أطواراً على طرقٍ ... شتى فصادفت منها اللّيْنَ والبشعا

كُلاً بلوت فلا النعماءُ تُبْطِرني ... ولا تَخَشّعت من لأوائها جزعا

لا يملأ الهولُ قلبي قبل وقعته ... ولا أضيق به ذرعاً إذا وقعا

١٠ـ إكرام الضيف، والتَّطَلُّقُ له، والقيام على خدمته، وألا يكلف المرء زائريه بأي عملٍ ولو قلَّ، كأن يطلب من ضيفه أن يناوله كتاباً، أو كأساً أو نحو ذلك، خصوصاً إذا كان الضيف غريباً، أو ليس ممن ترفع معه الكلفة، قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «ليس من المروءة استخدام الضيف».

١١ـ المروءة تنادي صاحبها أن يسود مَجْلِسَهُ الجدُّ، والحكمة، وألا يسوده إسفاف في مزاح، أو إسراف فيه.

أما المزاح المعتدل المقبول الملائم للحال والمقام ـ فمن مكملات المروءة؛ إذ الجفاء والغلظة مما ينافيها.

١٢ـ ألا يفعل المرء في السر ما يستحيي منه في العلانية، مما يخل بالمروءة، ويزري بصاحبها.

١٣ـ لزوم الحياء، والرفق، والعدل والإنصاف، واستعمال المداراة، وصدق اللهجة.

١٤ـ حفظ الأسرار، حتى بعد انصرام حبال المودة.

ليس الكريمُ الذي إن زل صاحبه بث الذي كان من أسراره علما
بل الكريم الذي تبقى مودته ويحفظ السر إن صافى وإن صرما

١٥ـ العفة عما في أيدي الناس، قال أحمد بن يحيى ثعلب رحمه الله:

من عفَّ خفَّ على الصديق لقاؤه وأخو الحوائج وجهه مبذول
وأخوك من وفَّرت ما في كيسه فإذا استعنت به فأنت ثقيل

١٦ـ الغيرة على الدين والمحارم.

١٧ـ كِبَرُ النفس وعلو الهمة، والترفع عن الدنايا ومحقرات الأمور.

١٨ـ الوفاء للإخوان.

١٩ـ قضاء حوائج الناس، والتودد لهم، والحرص على إدخال السرور عليهم.

٢٠ـ لزوم التواضع.

٢١ـ تَحَمُّل ضيق العيش، وتجنب إظهار الشكوى من حوادث الدهر إلا عند تقاضي الحقوق.

ومن أحكم ما قالته العرب:

ولربما ابتسم الكريم من الأذى وفؤاده من حَرِّهِ يتأوه

٢٢ـ تَجَنُّبُ المنةِ، وتعدادِ الأيادي إلا في مواضع العتاب، والاعتذار لا لإظهار المنة، وإنما للتذكير بالود السالف.

قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾ (البقرة: ٢٦٤).

قال رجل لبنيه: «إذا اتخذتم عند رجل يداً فانسوها».

وقيل: «المنة تهدم الصنيعة».

وقال ابن حزم رحمه الله : «حالان يسوغ فيهما ما يقبح في غيرهما، وهما المعاتبة، والاعتذار؛ فإنه يحسن فيهما تعديد الأيادي، وذكر الإحسان، وذلك غاية القبح فيما عدا هاتين الحالتين».

٢٣ـ الحذر من إيذاء الآخرين، أو جرح مشاعرهم بقول، أو فعل، أو إشارة، والمبادرة إلى الاعتذار، ورأب الصدع إن وقع شيء من ذلك.

٢٤ـ الشوق للإخوان، والحنين للأوطان، والبكاء على ما مضى من الزمان.

قال ابن عبد البر رحمه الله : «قيل لبعض الحكماء : بأي شيء يعرف وفاء الرجال دون تجربة أو اختبار؟ قال : بحنينه إلى أوطانه، وتلهفه على ما مضى من زمانه».

وقال رحمه الله : «عن الأصمعي قال : قال أعرابي : إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل، ودوام عهده، فانظر إلى حنينه إلى أوطانه، وتشوُّقه إلى إخوانه، وبكائه على ما مضى من زمانه».

٢٥ـ البر والصلة للوالدين، والأرحام، والجيران.

٢٦ـ مقابلة الإساءة بالإحسان.

٢٧ـ قبول المعاذير من المعتذرين : قال الشافعي رحمه الله :

اقبل معاذير من يأتيك معتذراً ... إن بَرَّ عندك فيما قال أو فجرا

لقد أطاعك من يرضيك ظاهره ... وقد أجلك من يعصيك مستترا

٢٨ـ إحسان الظن، والتماس المعاذير للناس : توفي ابنٌ ليونس ابن عبيد رحمه الله فقيل له : إن ابنَ عون لم يأتك : فقال : إنا إذا وثقنا بمودة أخٍ لا يضرنا ألا يأتينا.

وقالت امرأة عبد الله بن مطيع لعبد الله : ما رأيت ألأم من أصحابك؛ إذا أيسرت لزموك، وإذا أعسرت تركوك.

فقال: هذا من كرمهم؛ يغشوننا في حال القوة مِنًّا عليهم، ويفارقوننا في حال العجز مِنًّا عنهم.

ومر بخالد بن صفوان صديقان، فَعَرَّج عليه أحدهما، وطواه الآخر، فقيل له في ذلك، فقال: عرج علينا هذا؛ لفضله، وطوانا ذاك؛ لثقته.

٢٩ـ السخاء في كافة صوره، من سخاء بالنفس، أو العلم، أو المال، أو الجاه، أو الخدمة، أو السخاوة عما في أيدي الناس، أو السخاء بالعفو، ونحو ذلك من أنواع السخاء.

٣٠ـ صيانة العرض، والبعد عن مواطن الريب والسخرية.

٣١ـ الإعراض عن الجاهلين ﴿ خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ ﴾ (الأعراف:١٩٩).

٣٢ـ التغاضي، والتغافل.

٣٣ـ السماحة بالبيع والشراء من غير ضعف ولا عجز.

٣٤ـ الإتحاف بالهدايا، قال النبي ﷺ: «**تهادوا تحابوا**».

٣٥ـ الحلم وكظم الغيظ.

٣٦ـ إنزال الناس منازلهم.

٣٧ـ التماس الرضا، وقلة الخلاف على الأصحاب خصوصاً في السفر، قال الأحنف بن قيس رحمه الله: «لو جلست إلى مائة لأحببت أن ألتمس رضا كل واحد منهم».

وقال أبو غسان غناة بن كليب: «اجتمعت أنا ومحمد بن النَّضْر الحارثي، وعبدالله بن المبارك، والفضيل، ورجلٌ آخر؛ فصنعت لهم طعاماً، فلم يخالف محمد بن النضر علينا في شيء، فقال له ابن المبارك: ما أقل خلافك، فأنشد:

وإذا صـــاحبت فاصـــحب ماجـــداً ذا حيـــاء وعفـــاف وكـــرم
قـــائلاً للـــشيء: لا إن قلـــت: لا وإذا قلـــت: نعـــم قـــال: نعـــم

٣٨ـ نشر الجميل، وستر القبيح عمن تفارقهم.

٣٩ـ نظافة البدن، وطيب الرائحة، والعناية بالمظهر بلا إسراف ولا مخيلة.

٤٠ـ قبول النقد الهادف، والنصيحة الصادقة بقبول حسن، وصدر رحب.

٤١ـ تجنب الفضول من الطعام، والكلام، والمنام، ومخالطة الأنام.

٤٢ـ مراعاة العادات والأعراف ما لم تخالف الشرع.

٤٣ـ مراعاة أدب الغربة، ومجالسة أهل المروءة.

٤٤ـ استكثار القليل من معروف الآخرين، يقول سفيان الثوري رحمه الله: «إني لأُريدُ شربَ الماءِ؛ فيسبقني الرجل إلى الشربة، فيسقينيها، فكأنما دَقَّ ضلعاً من أضلاعي؛ لا أقدر على مكافأته».

٤٥ـ نسيان الإنسانِ معروفَه، واستقلاله إذا قدمه للآخرين.

٤٦ـ القيام بحقوق الجيران من كف الأذى عنهم، واحتمال أذاهم، وحمايتهم، ونصرتهم، والإحسان إليهم، وإكرامهم.

٤٧ـ التقوى؛ فهي جماع المروءة، وأولها، وآخرها، وواسطة عقدها.

أما لذة المروءة وفضلها فحدث عن ذلك ولا حرج: فإذا كانت المروءة تقتضي الإعراض عن كثير من اللذات ـ فإن المروءة نفسَها لذةٌ تفوق كل لذة في هذه الحياة، وإن كان في حفظ المروءة ملاقاةُ كثيرٍ من المشاق فإن راحة الضمير التي يجدها الرجل عندما يبلغ في المروءة غايةً ساميةً تُنسيه كلَّ مشقة، ولا يبقى معها للتعب باقية، وإذا نظرنا في تفاصيل الأخلاق والآداب التي تقوم المروءة على رعايتها وجدناها تبعث على إجلال صاحبها، وامتلاء العين بمهابته.

وبعد أن تبين لنا كيف انتظمت المروءة أخلاقاً سنيةً، وآداباً مضيئةً، وعرفنا أن رسوخ هذه الأخلاق، والآداب في النفس يحتاج إلى صبر، ومجاهدة، ودقة ملاحظة، وسلامة ذوق ـ فإنه حقيق بنا أن نربي أنفسنا على رعايتها، ونربي أولادنا، ومن تحت أيدينا على ذلك الخلق منذ عهد التمييز حتى لا تسبق إليهم أخلاقٌ غير نقية، وعاداتٌ غير رضية؛ فتحول بينهم وبين الفضائل، فلا تجد المروءة إلى نفوسهم مدخلاً.

وإذا ربَّيناهم على خلق المروءة حمدوا أُبوَّتنا، وحسنَ تربيتنا، وكانوا قرةَ عينٍ لنا، وأسوة لأحفادنا، وزينة لأمتنا، وبذلك يفوزون بالعزة في الدنيا، والسعادة في الآخرة[1].

هذا وإن من أعظم ما يربي على المروءة ذكر الأخبار والقصص التي تشتمل على المروءات، فذلك مما يشحذ الهمم، ويرتقي بالمكارم.

وكم تغير أقوام، وسموا بأنفسهم بسبب موقف نبيل شاهدوه، أو خبر عن عظيم قرؤوه، وهذا ما يسعى إليه هذا المؤلَّف الذي بين يديك.

---

١ ـ انظر تفاصيل الحديث عن المروءة ومقوماتها في الكتب التي تناولتها بالتفصيل، أو بذكر مقوماتها وتفاريقها، ككتب السير والآداب والتواريخ، مثل: عيون الأخبار لابن قتيبة، والصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي، والأخلاق والسير لابن حزم. وأدب الدنيا والدين للماوردي، وبهجة المجالس لابن عبدالبر. والعقد الفريد لابن عبد ربه، والآداب الشرعية لابن مفلح، ومحاسن الآداب للقاسمي، ورسائل الإصلاح لمحمد الخضر حسين، وغيرها كثير.

إيثار عاملين

الإيثار هو أن تترك حقك تكرماً، وأنت في حاجة شديدة، وتستطيع الوصول إليه بسهولة.

وهذه الخصلة شعبة إيمانية عظيمة، أثنى الله -عز وجل- على الأنصار -رضي الله عنهم- بأنهم يتمثلونها، ويأخذون بها، قال -جل ثناؤه-: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

والإيثار حقاً هو ما كان صادراً عن قلةِ ذات يدٍ، وكان المُؤْثِرُ فيه ناظراً للمآلات، متدبراً للعواقب، راجياً ما عند الله، منتظراً الجزاء منه وحده.

ومما يحضر في هذا الشأن قصتان سمعتهما في وقت واحد في أيام عشر ذي الحجة عام ١٤٣٤هـ :

أما الأولى فهي قصة لعامل مصري قد أمضى زهرة شبابه في العمل في المملكة العربية السعودية؛ حيث كان يعمل في بناء البيوت، ونقل الأمتعة، ونحو ذلك من المهن.

وقد نشأ هذا العامل يتيماً؛ حيث توفي والده وهو صغير، فتزوجت أمه برجل آخر، وأنجبت منه أولاداً، كما أنه تزوج ورزق بأولاد.

وكان يصرف مما يكسبه من عمله على زوجته وأولاده ووالدته وإخوانه لأمه، وكان في الوقت نفسه يبني منزلاً له ولأولاده.

وبعد مضيٍّ ما يزيد على خمس وعشرين سنة من العمل المتواصل والغربة الطويلة التي يتخللها إجازات قصيرة يذهب فيها إلى أهله حاملاً معه الهدايا الكثيرة ـ تيسر له بناءُ منزلٍ يكفيه وأسرتَه؛ ليرتاح بقية عمره فيه بعد أن أنهكه التعب، وأصيب بمرض في الظهر، فصار يُضْعِفُ قواه زيادة على مر السنين.

ولما ذهب إلى بلده؛ ليسكن في منزله الجديد مع زوجته وأولاده فوجئ بأن أمه وإخوانه لأمه قد سبقوه إلى المنزل الجديد، واستوطنوه، وتركوا له جزءًا صغيرًا في طرف المنزل.

فلما فاتح إخوانه بذلك الشأن، وقال لهم: هذا منزلي، ووالدتي تكون عندي، وأنتم تسكنون في طرف المنزل، أو أبحث لكم عن منزل آخر ـ رفضوا كلامه، وقالوا: هذا منزلنا ومنزل والدتنا، ووافقتهم أمهم على ذلك.

فلما سمع كلامهم أصابه غمٌّ شديد، وقهر عظيم، ولسان حاله يقول:

أسلمي أمَّ خالدِ ربَّ ساعٍ لقاعدِ
ربَّ مالٍ جمعتُه لامرئٍ غير حامدِ

ويقول:

.... هذا يصيد وهذا يأكل السمكة

وصار بعد ذلك حائراً لا يدري ما يصنع؛ فأشار إليه بعض أصدقائه أن يحاول فيهم، فإن أصروا على البقاء فليرفع عليهم دعوى، وسيكسبها بيسر وسهولة.

ولما سمع ذلك الرأي فكر ملياً، وصار أمام أمرين أحلاهما مُرٌّ، ثم رأى من بعد طول تأمُّلٍ وتردُّدٍ أن يدع المنزل لأمه ولإخوانه، وقرر أن يعود إلى السعودية للعمل مرة أخرى.

وكنتُ أعرف هذا العامل منذ فترة طويلة عن طريق أحد الإخوة، فوجدته في يوم من الأيام عنده، فحدثني ذلك الأخ بقصة العامل المذكور، وقال: إنني سألته ماذا قررت؟ فقال: فكرت كثيرًا في هذا الشأن، وقلت: إنْ أنا رفعت قضية على إخوتي تفرق شملي، وتبغَّضت لإخوتي، وكدرت على والدتي، وأفسدت ما قمت به طيلة السنوات الماضية، وعاد ذلك كله بالضرر والهم علَيّ؛ فرأيت أن أَدَعَهُم فيما هم فيه؛ مراعاةً لخاطر أمي، وحفاظاً على الرحم التي بيني وبين إخوتي، وقد شرح الله صدري لهذا الرأي، وسألته -عز وجل- أن يعوضني خيرًا من ذلك.

يقول صاحبي: لما رأيت حاله تلك أكبرتُه، وعرضت عليه عدداً من الآراء، ومن ضمنها العمل في استراحة لي وبراتب شهري، وقلت له: إن هذا العمل لا كلفة فيه، وإذا وجدت عملاً آخر عند أحد فلن أمنعك عنه، فَتَحْصُل على مرتبك، وعلى ما تجنيه من أي عمل آخر.

وإن أردت خلاف ذلك من الآراء فأنت وشأنك، وأنا قريب منك متى ما أردت مني شيئاً.

فهذه هي قصة إيثار ذلك العامل المصري المسلم.

أما القصة الأخرى فقد جرت لعامل بنغالي؛ حيث كان يعمل عند أحد الأصحاب الكرام في مكة المكرمة، وقبل وقت قريب توفي والد ذلك العامل، وخلف إرثاً، ومن ضمن ذلك الإرث قطعتا أرضٍ، وكان لذلك العامل أخ شقيق، فآل ذلك الإرث له ولأخيه، وكانت إحدى تلك القطعتين على شارع عامٍّ رئيس، ولها قيمة عالية.

وأما الأرض الأخرى فكانت دون الأولى بكثير؛ حيث لم تكن بمواصفات الأولى، ولم تكن الرغبة إليها كالرغبة في الأولى، فحصل أن تَمَلَّك الأخ الذي في بنغلاديش الأرضَ المرغوبة، وترك الأخرى لأخيه دون استشارة له؛ فعلم أولاد الأخ بذلك، فغضبوا، واتصل أحدهم بوالده، وأخبره بالأمر؛ فاتصل بأخيه، فسأله عن ذلك، ورغب إليه بمراجعة نفسه، ولكن ذلك الأخ أصر على أخذ تلك الأرض الغالية.

حينها حزن ذلك العامل حزناً شديداً؛ من جهة خسارته للأرض، ومن جهة ما حصل من لؤم أخيه، واستبداده؛ فصار ولده يغريه برفع دعوى قضائية؛ كي يرجع إليه حقه؛ فاستشار ذلك العامل كفيله ـ وكان ذلك الكفيل صاحب نَفْسٍ كبيرة عالية ـ فأشار عليه أن يَدَعَ الأرض لأخيه، وأخبره بما يترتب على الشكوى من القطيعة، وخسارة الأخ، وذكَّره بالعوض من الله.

يقول الكفيل: وبعد يومين من ذلك الكلام الذي دار بيني وبين مكفولي ـ جاءني، وقال: لقد تنازلت عن الأرض لأخي، وقررت ترك الشكوى، وقلت لولدي: لا تحرك ساكناً، ودع عمك يأخذ ما يشاء، ويترك ما يشاء، وسألت ربي العوض، ووجدت راحة بذلك القرار.

يقول الكفيل: ففرحت لذلك الموقف النبيل، وكَبُرَ مكفولي بعيني، وشكرته على مبادرته الكريمة، ونفسه العالية مع قلة ذات يده، فزدت في إكرامه، وأعطيته هدية جزلة ربما تزيد على قيمة الأرض التي آثر أخاه بها، وازددت تمسكاً به.

والحقيقة أن ذلك العامل الذي تنازل عن حقه لا يلام لو طالب به، ولكنه آثر التكرم، ورغب في معالي الأمور، ونظر في العواقب، وتمثل قول العربي: (إذا عز أخوك فهن) فكانت عاقبته رشداً وفلاحاً.

ومن جميل تلك العاقبة أنه لما سافر إلى بلده بعد هذا الموقف النبيل لقي حفاوة وحظوة من أخيه، وصار لأولاده نصيب من تلك الحفاوة والحظوة.

ولو أنه طالَبَ بحقه، ولم يؤثر أخاه بتلك الأرض لربما حصل على حقه.

ولكنه سيكدر علاقته بأخيه، وربما عاد ذلك بالضرر على أولاده وأولاد أخيه.

ولربما بقيت الشحناء بين أسرتيهما مدى الدهر.

وبعد: فهذه الحادثة والتي قبلها ترينا لوناً من ألوان الإيثار الذي يضفي على الحياة طعما آخر، وتكسر في نفوسنا شيئاً من حِدَّة الأثرة والشره؛ فأين حال هذين العاملين الذين رضيا بميسورٍ من العيش قد لا يصل إلى حد الكفاف ومع ذلك آثرا إخوانهما على أنفسهما ـ من حال أناس يملكون الأموال الطائلة، والعقارات الكثيرة الكبيرة ونحوها، ولا يكاد الواحد من هؤلاء يتنازل عن أقل القليل من حقه مما ينفع غيره ولا يضره شيئاً.

ولو فعل ذلك لظفر بِلَذَّةِ الإيثار، ورضا الرحمن، ولأدرك جمال الحياة، وصفاء الأُخُوَّة، والسلامة من نار العداوات.

وما يُلَقَّى ذلك إلا عقلاء الناس الذين يتدبرون العواقب، ويؤثرون الآجل على العاجل، على نحو قول المقنع الكندي:

وإن الذي بيني وبين بني أبي ... وبين بين عمي لَمُخْتَلِفٌ جدًّا
إذا قدحوا لي نارَ حرب بزندهم ... قدحتُ لهم في مكرمةٍ زندا
وإن أكلوا لحمي وَفَرْتُ لحومَهُمْ ... وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا
وأعطيهمُ مالي إذا كنت واجداً ... وإن قل مالي لم أُكَلِّفْهُمْ رِفدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهمُ ... وليس رئيسُ القوم من يحمل الحقدا

خصومة شريفة بين وجيهين

الخصومة الشريفة هي التي تكون بين فارسين نبيلين يستدعيها سبب معقول؛ فإذا قُدّر لهما أن يتخاصما ـ كانت معركتهما شريفة سامية تُتبادل فيها الحجج والبراهين بصورة مكشوفة، ويترفعان فيها عن أساليب المهاترة والإسفاف والتربص والدناءة؛ فإذا انتهت المعركة انتهى كل شيء معها .

ومما يحضرني في ذلك القبيل قصة ذكرها لي أحد أكابر الوجهاء في إحدى دول الخليج، وهو من أهل الزلفي في الأصل، وممن اشتهر بالكرم، وحسن المعشر، وطلاقة المحيا، وحلاوة المنطق.

يحدثني ذلك الوجيه قائلاً: حصلت خصومة عندنا بين اثنين من أكابر الوجهاء والأغنياء حول مسألةٍ مّا، فثار حولها منازعات شديدة وصلت إلى المحاكم، وصارت حديث الناس، وانزعج لها محبو الطرفين.

وفي يوم من الأيام كانت مناسبة عند أحدهما، وكان لابد له ـكما جرت العادةـ من دعوة صاحبه الذي وقعت بينه وبينه تلك الخصومة؛ فصار الناس عندنا يترقبون ما سيسفر عنه الأمر، هل سيدعو صاحبه للمناسبة؟ وإذا دعاه فهل سيجيب ذلك الصاحب دعوة صاحبه؟ وإذا أجابه أو لم يجبه فماذا سيكون؟ أسئلة ظل الناس في شأنها يدوكون.

والذي حصل أن صاحب تلك المناسبة وجَّه الدعوة إلى صاحبه، وعلم الناس بذلك، وصاروا يترقبون موعد المناسبة على أحرَّ من الجمر؛ ليروا هل سيأتي ذلك الصاحب المدعو أوْ لا؟

فما إن جاء موعد المناسبة، وتوالى حضور المدعوين إليها، وامتلأ بهم المكانُ المعدُّ لاستقبالهم - إلا وفوجؤوا بذلك الصاحب الخصم المدعوِّ للمناسبة يُقْبل إلى صدر المجلس؛ كي يسلم على صاحبه الداعي، ثم يأخذ مكانه في ذلك المجلس؛ فلما رآه صاحبهُ صاحبُ الدعوة نهض من مكانه مسرعاً، واستقبله في وسط المجلس، ولم ينتظره حتى يصل إليه، فعانقه عناقاً طويلاً حاراً، ثم أخذ بيده - والناس شاخصة أبصارهم لذلك المشهد الرائع - وأجلسه في مكانه في صدر المجلس، وصارا يتجاذبان أطراف الحديث بكل ود، وسكينة.

ولما انتهى الترحيب بالضيف القادم قال له صاحبه: أشكر لك إجابة الدعوة، فقال له ضيفه: بل أنا أشكر لك توجيه الدعوة إلي، فقال له صاحبه: هذا حقك، فقال له الضيف: وهذا -أيضا- أقل حقوقك؛ فقال له صاحب المكان: إذاً اسمع منِّي؛ القضية التي بيننا أنت خصمها وأنت حكمها، وهي بين يديك؛ فاحكم فيها بما ترى.

فقال له صاحبه: بل الأمر إليك أنت؛ فاحكم بما ترى، فصار كل واحد منهما يضع القضية عند صاحبه؛ ليحكم فيها؛ فصارت قضية أخرى؛ حيث انقلبت من خصومةٍ باعثُها الأثرةُ إلى قضية أخرى باعثُها الإيثار؛ وما انْفَضَّ ذلك السامرُ إلا وعادت المياه إلى مجاريها، ورجع ودُّهما السالفُ إلى أحسن مما كان عليه.

وكان ذلك الموقفُ مثارَ إعجاب الحاضرين، ومن سمعوا به.

بل صار من جملة مناقب ذينك الصاحبين النبيلين اللذينِ أبانا عن فروسية كامنة، ومروءة صادقة.

فهذا -حقيقة- هو النصر، الذي يفاخر الإنسان به؛ حيث انتصر على نوازعه، ورعوناته، وحقق به معنى قوله - تعالى - : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ فصلت: ٣٤-٣٥.

وأجاب دعوة الحكيم الناصح إذ قال:

يا من تضايقه الفعا ... ل من الذي ومن التي
ادفع - فديتك - بالتي ... حتى ترى فإذا الذي

خصومة شريفة
بين عالمين كبيرين

الآراء والأفكار هي معترك الأقران والأنظار؛ والخلاف بين أهل العلم قديم قدم العلم.

واختلاف الرأي لا يفسد للود قضية
و:
في الرأي تضطغن العقول وليس تضطغن القلوب

هذا هو شعار الأكابر، والأفاضل من أهل العلم؛ فمهما اختلفوا فإنهم يحتفظون بنزاهتهم، وطهارة منطقهم، ويحفظون للمخالفين منازلهم، أقدارهم.

وأما من عداهم من أدعياء العلم، وثاكلي المروءة ـ فلا يَرْعَون هذا الجانب حق رعايته، بل إن سلاحهم المهاجاة، والسباب، والفجور في الخصومة.

ويحضرني في هذا الشأن خصومة شريفة معاصرة، وقعت بين اثنين من أكابر العلماء في القرن الرابع عشر.

وهذان العالمان هما: الشيخ العلامة محمد الخضر حسين التونسي، والشيخ محمود شلتوت العالم المصري المعروف.

وكلاهما عضو في هيئة كبار العلماء في مصر، وممن تولى مشيخة الجامع الأزهر.

وقد كان بينهما خصومة قوية في مسألة علمية، وذلك لما نشر الشيخ محمود شلتوت رحمه الله مقالة عنوانها (الهجرة وشخصيات الرسول).

وهذه المقالة تدور حول رأي للشيخ شلتوت، مفاده أن الذي يعد شرعاً دائماً هو ما يرجع إلى شخصيات الرسول ﷺ من العقائد، وأصول الأخلاق، والعبادات.

وما عدا ذلك مما يرجع إلى شخصية الإمام، أو المفتي، أو القاضي - فليس بشرع دائم، وإنما هو شرع مؤقت يمكن أن يتأثر بالاجتهاد، وأن يترك العمل به لسبب من الأسباب.

فهذا هو خلاصة رأي الشيخ شلتوت رحمه الله.

وقد أحدث هذا الرأي ضجة كبرى في مصر؛ حيث أثار كثيراً من أهل العلم، وأهاج حفيظتهم وغيرتهم الإسلامية.

ومن هؤلاء: الشيخُ الخضر الذي نقد تلك المقالة نقداً علمياً عظيماً قل أن يوجد له نظير في العصور المتأخرة من حيث قوته، وعلميته، وبراعة نقضه.

ولا غرو في ذلك؛ فإن عبقرية الشيخ الخضر الفذة تتجلى أعظم التجلي في ردوده العلمية، ومنازلاته الفكرية.

يقول الشيخ محمد الخضر في مقدمة ذلك النقد: «أحضرت ذلك المقال المنشور تحت عنوان (الهجرة وشخصيات الرسول) وقرأته قراءةَ خالي الذهن مما قيل فيه، فما لبثت أن لاقتني جمل صيغت في قالبٍ ذي وجهين، وأَطَلَّت عليَّ آراءٌ قُلْتُ لمَّا لمحتها: أما وَجَدَتْ هذه الآراء وادياً غير هذا الوادي، أو عهداً غير هذا العهد؟.

وأمسكت القلم ناقداً لها بعدل، مناقشاً لها بإنصاف.

وسأسلك - بتوفيق الله تعالى - الطريقة التي اخترتها لنفسي في مناقشة ما يبدو لي أنه جدير بالمناقشة؛ فأنقل عبارات كاتب المقال بأعيانها؛ لأسير أنا والقارئ في النقد جنباً إلى جنب، ولا أظلم صاحب المقال، ولا أظلم الحق أو العلم».

ثم شرع رحمه الله في نقد المقال على النحو الذي وعد به.

يقول الدكتور أحمد الشرباصي رحمه الله عن تلك الخصومة: «يذكر القراء أن الأستاذ الكبير الشيخ محمود شلتوت وكيل كلية الشريعة الإسلامية كتب في بعض أعداد مجلة (الرسالة) مقالاً عنوانه: «الهجرة وشخصيات الرسول» ذهب فيه مذاهب أهاجت عليه المسلمين في مصر وبعض الأقطار العربية، ورأى الأستاذ الخضر أن في هذا المقال من الآراء ما هو خطأ محض، ولا يصح السكوت عليه، أفتدري ماذا فعل؟ لم يَثُرْ، ولم يغضب، ولم يَرُدَّ على مقالة الأستاذ شلتوت بمقال مثله في عجلة وتسرع؛ بل أقبل على موضوع المقال، فدرسه دراسة العالم الخبير، وجمع الدلائل والشواهد على ما فيه من أخطاء، ثم جلس إلى مكتبه الهادئ العامر بمكتبته العظيمة في دار جمعيته، وكتب كتابه القيم «نقد مقالة الهجرة وشخصيات الرسول» وطبعه فيما يزيد على تسعين صفحة؛ فعلى الذين قرؤوا مقالة الشيخ شلتوت، أو سمعوا بها: أن يحرصوا على قراءة هذا الكتاب الذي يعد مَثَلاً على الإنصاف في النقد، والعفة في المجادلة، والحكمة في الدعوة؛ حتى يتبين لهم الحق بعد أن يسمعوا كلام الفريقين» اهـ.

ولما مات الشيخ الخضر في ١٣ / ٧ / ١٣٧٧هـ نُعي نبأ وفاته إلى الشيخ محمود شلتوت؛ فماذا كان منه لما سمع ذلك النبأ؟.

لعل الذي شهد ذلك الموقف هو خير من يحدثنا، وهو الشيخ طه محمد الساكت أحد علماء الأزهر، يقول الشيخ طه رحمه الله: «ما كنت أحسب ـ وأنا

أنعى إليه[١] شيخنا وإمامنا الراحل[٢] وقد أسلم الروح إلى بارئها- إلا أنه يجاملني بكلمة عزاء تمر كما يمر غيرها من الكَلِم.

ولكن ما كان أعظمَ دهشتي حينما فزع، واسترجع، ثم أخذ يلقي عليَّ درساً في تقدير العظماء الراحلين، درساً خليقاً بأن يسجل ويروى في تاريخ الخالدين.

كانت بين الشيخين خصومة في بعض مسائل العلم، ولكنها كانت خصومة نبيلة كريمة من قبيل (الخصومة بين الأكابر).

وكان من دأب فقيدنا الراحل ـ تغمده الله برحمته ـ: أن يسجل مسائل الخلاف بينه وبين خصمه في مقال أو رسالة، ثم يأتي عليها بالحجة الساطعة، والبيان الناصع، في أمانة من النقل، وعفة من القول هما المثال الأعلى لمن يبتغي الإنصاف والحق من أعدل طريق وأمثله.

ويقرأ خصمه الرد عليهم في مقالاته وكتبه، وكلهم أو جُلُّهم من عِلْيَة القوم، وأكابر الكُتَّاب، فيعجبون للأدب الرشيد، والقول السديد، والحجة البالغة، والعلم المصفى، والحكم البصير النافذ، الذي يتقدمه الإخلاص والإيمان، ويصحبه العدل والإحسان؛ فيخشع له كل عالم وأديب، ويهابه كل دفع أو تعقيب.

لكن النبلاء من خصمه، يفيدون من ذلك النبع الفياض، والأدب العالي الرفيع، ثم ينوِّهون به في حياته، ويَدْعون إلى التخلق به بعد وفاته، وكذلك فعل (الرجل العظيم).

---

١ ـ أي: الشيخ محمود شلتوت.

٢ ـ أي: الشيخ محمد الخضر حسين.

كانا عضوين بالمجمع اللغوي، إلا أن إمامنا - الخضر - كان أسبق؛ إذ كان ركناً من أركان المجمع منذ أنشئ، وكانا عضوين في جماعة كبار العلماء، إلا أن عظيمنا - شلتوت - كان أسبق منذ بضع سنين.

فلما تقدم إمامنا - الخضر - إلى عضوية الجماعة ظن من لا يعرفون الرجل - الشيخ شلتوت - : أن الفرصة قد هيئت للوقوف في طريق خصمه.

لكنها كانت مفاجأة كريمة حاسمة أن زكّاه الخصم النبيل وهو يقول: (إنَّ من لا يزكي السيد الخضر في عضوية الجماعة فإنما يلغي عقله، أو يسقط نفسه) أو قال كلمة نحوها.

فلما قضى الله قضاءه، واستأثر شيخنا الخضر برحمته هزني الرجل بكلماته هزاً وهو يدعو إلى التأسي به، حتى كأن المسرة -الهاتف- كانت ترتجف من هول ما أصابه، أو من عظمة ما يقول.

أما بعد فإن أهمك أن تعرف (الرجل) فحسبك أنه يشغل مركزاً اجتماعياً خطيراً، ما خلا منصباً أزهرياً كبيراً، فإن لم تعرفه بعد ذلك، فحسبك درس عظيم، من رجل عظيم، في إمام كريم، عاش في الله، وجاهد في الله، ثم مات في الله، ورحل - بإذن الله - إلى الرفيق الأعلى ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ النساء: ٦٩ » ا.هـ

وبعد فهذه خصومة معاصرة ترينا ما ينبغي أن يكون عليه الخلاف من الشرف، والنزاهة، والبعد عن أساليب المراوغة، والتربص، والدناءة.

ولو ساد ذلك الأدب لكان الخلاف رحمة، وارتقاءًا بالعقول، والعلوم، والأخلاق.

شهامةٌ من أخ لأخيه

صفاء الود بين الإخوةِ نعمة لا تقدر بثمن؛ فإذا قَيَّض الله للإنسان تلك النعمة فَلْيَعضَّ عليها بالنواجذ، ولْيُثنِ عليها بالخناصر.

فإذا صفت تلك العلاقة بين الإخوة فلا تسل عما يعقب ذلك من الخيرات التي تعود عليهم وعلى أولادهم، وعلى أسرتهم.

وإن كانت الأخرى فويل ثم ويل لهم.

ومما يحضرني في هذا الشأن ما يحدِّث به أحدهم عن أخٍ له شهمٍ كريم، يعطي ولا يبالي بما يعطي، ويسدي الجميل دون علم أحد، وله في ذلك أخبار يطول ذكرها.

ومن جملة تلك الأخبار ما يرويه محدِّثنا عن أخيه، حيث يقول: «كنت في يوم من الأيام في مجلس أخي، وتحدثت عن رغبتي بشراء نوعٍ من السيارات، وكان حديثي عابراً، ولم أُظهر فيه رغبة شديدة، ولم أوصِ أحداً بذلك، وكنت ميسور الحال، وباستطاعتي شراء تلك السيارة بيسر وسهولة.

بل كان عندي سيارة أخرى، ولكني أحببت تلك السيارة؛ لأنها تريح داخل البلد، وفي الأسفار التي لا أصطحب فيها أسرتي؛ فكان حديثي من باب الاستشارة فحسب، ولم أُعِدْ الحديث عن ذلك الموضوع مرة أخرى .

وبعد مضي أيام من ذلك الحديث العابر فوجئت في صباح يوم خميس - لما كان الخميس يوم إجازة- بأن أخي يتصل بي، ويقول: أنا خارج البلد، وعند بابك شخص يريدك فافتح له، فخرجت فإذا بشخص معه سيارة كبيرة، وعلى متنها سيارة جديدة؛ فسلمت على ذلك الشخص، وطلبت منه الدخول إلى المنزل، فاعتذر قائلاً: أنا في عجلة من أمري.

فسألته: ما خطبك؟ فقال: أريد أن أنزل هذه السيارة عندك، فقد أوصاني أخوك بذلك.

فسألته: لمن هذه السيارة؟ فقال: هذه أوراقها؛ فَخُذْها؛ فأخذتها منه، وفوجئت بأنها باسمي، وأن أوراقها كاملة، فاتصلت بأخي، وسألت: ماذا صنعت؟ ومن قال لك ذلك؟ فقال: شعرت برغبتك بتلك السيارة، فسألت عنها، فقيل لي: إنها غير موجودة في ذلك الوقت في أكثر مناطق المملكة، فأكثرت السؤال، فقيل: إن هناك سيارةً واحدة من هذا النوع في بلد ناءٍ عن بلدنا، فحجزتها، ثم اشتريتها، والأمر يسير جداً.

فقلت له: يكفيني منك متابعتها وإنهاء إجراءاتها؛ فذلك مما يتطلب مني وقتاً، وجهداً؛ فكيف بإحضارها إليّ في منزلي وعلى هذا النحو؟!

ثم قلت له -أيضا-: كيف حصلت على بطاقتي؟ فقال: حصلت عليها عندما اتصلت بك قبل أيام، وقلت لك: إنني أحتاجها لبعض الإجراءات التي تخص تحديث بياناتك، ومن ثم اشتريت السيارة، ووضعتها باسمك.

حينها شكرته على ذلك الصنيع، وقلت له: كم قيمتها؛ فأنا أريد تسليم مبلغها؛ فقاطعني، وقال: الأمر يسير، وأرجو ألا تفاتحني في الموضوع مرة أخرى».

يقول ذلك الأخ المُهدى إليه: فما كان مني إلا أن قبلت هديته، وشكرت له مبادرته، ولم أطل معه في الحديث في هذا الشأن؛ لأني أعلم أنه لا يريد ذلك، وإنما ادخرت كلامي وما لدي من مشاعر؛ لتكون دعوات صادقة أدعو له بها في كل وقت؛ وأحفظ ذلك الجميل له طيلة عمري، وأضمه إلى أياديه البيضاء التي لا تزال تترا عليّ.

ووالله ما فرحتي بتلك الهدية لقيمتها -وإن كانت غير قليلة- بقدر ما كانت بذلك الشعور، والتكرم، وإتمام الموضوع بسهولة ويسر:

وما كل هاوٍ للجميل بفاعل   وما كل فعال له بمتمم

فهذه الحادثة ترينا لوناً من ألوان الجمال التي تضفي على الحياة بهجةً وسروراً، وتعطينا صورة من صور الأخوة الصادقة التي هي من زينة الحياة الدنيا.

شهامة لغريب

في عام ١٤٠٥هـ كنت في رحلة إلى الكويت للسلام على بعض الأقارب، وكان معي اثنان من الأصدقاء.

ولما وصلنا الكويت أردنا الذهاب إلى مكان لِصرافة النقود؛ لشراء عملة كويتية.

ولكني لاحظت أن وقود السيارة قد شارف على الانتهاء؛ فخشيت أن ينفد؛ فوقفت عند أقرب محطة.

ولما تزودنا من الوقود، وأعطينا العامل المبلغ المقدر بالعملة السعودية رفض -وحق له- وقال: أريد عملة كويتية، فحاولنا معه، وقلنا له: دعنا نذهبْ إلى أقرب صراف، ونأتيَك بالمبلغ؛ فرفض؛ فصار كل واحد منا في جهة يبحث عن شخص يصرف له العملة؛ لنتمكن من السداد.

وبينما نحن كذلك صَوَّت لنا عامل المحطة قائلاً: لقد انتهى موضوعكم؛ فامضوا لشأنكم، فقلنا: كيف ذلك؟

قال: أرأيتم ذلك الرجل الذي سيركب سيارته؟

قلنا: نعم - وكان رجلاً بهيَّ الطلعةِ ذا لحية كثة، ويلبس نظارة وغترة بيضاء، كأني أراه الآن -.

قال العامل: سألني ماذا يريد هؤلاء؟ فأخبرته بالأمر، فدفع المبلغ كاملاً، وانصرف.

حينها رفعنا له الصوت طالبين منه أن يقف؛ لنشكره، ونعطيه المبلغ المقابل، فإذا به يسرع في خطاه، ويركب سيارته، ويمضي في سبيله؛ فلم نستطع إيقافه،

أو اللحاق به؛ فعَجِبنا من تلك الشهامة والمروءة.

هذا الموقف مضى عليه الآن ما يزيد على ثلاثين سنة ، ولا يزال مرتسماً في ذهني ، وكلما تذكرته ذكرت صاحبه بخير، ودعوت له من كل قلبي ، ولو عرفت اسمه ، أو مكانه لواصلته ، ووصلته بما أستطيع.

هذا الموقف يصوِّر لنا الشهامة ، والمروءة ، والإخلاص بأروع ما يكون؛ ليس بقيمة ما دفع ، وإنما لتقديره الموقف ، وإخلاصه الذي بعثه إلى تسديد المبلغ دون أن ينتظر منا جزاءًا ولا شكوراً.

وإني لأظن أن لهذا الموقف في حياة أخينا نظائرَ أخرى ، وأرجو أن يغفر الله له ، ويرفع درجاته؛ فإذا كانت المرأة البغي التي سقت كلباً فغفر الله لها بسبب ذلك ـ فما الظن بذلك الصنيع من رجل تقيٍّ صالح ـأحسبه والله حسيبهـ.

هذا الموقف يرينا وجهاً من وجوه الحياة المشرق الجميل الذي يطرد شبح اليأس ، ويحارب جراثيم المادية البحتة.

ويعطينا صورةً عن ذلك البلد الطيب ، الذي تَعَوَّد أهله بَذْلَ المعروفِ ، وإغاثةَ الملهوف.

مرافقة طويلة لمريض

مرافقة المريض في المستشفى لا يطيقها كل أحد، ولو كان والداً، أو ولداً، أو قريباً، أو صديقاً؛ لأنها تعني الانقطاع، وملازمة المريض؛ ولأنها تورث الملل، والسآمة، من جراء ضيق المكان، وحال المريض، ونحو ذلك مما لا يخفى.

وإذا كان المريض بعيدًا عنك، أو كان ذا رحم بعيدة، أو ليس بينك وبينه قرابة، أو كنت -أيها المرافق- من ذوي الأعمال الكثيرة، أو كنت كبير سِنٍّ وترعى أسرة تحتاج إلى قربك منها - فذلك وهنٌ على وهن، ولا يقوم بذلك الإصر إلا نفوس كبار مُلئت شهامة، ووفاءاً، وصبراً.

ويزداد جمال المرافقة إذا كانت مصحوبة بطيب نفس، وانشراح صدر، وحرص على إيناس المريض.

ومن أعجب ما رأيت في ذلك قصتان: **أما الأولى** فقد سمعتها، وسألت عنها بطلَها؛ فأخبرني بصحة ذلك الخبر.

وملخص القصة أن شاعر الزلفي الكبير محمد بن علي الجاسر رحمه الله مرض في كبره، وأدخل مستشفى الشميسي في الرياض، ومكث فيه عدة أشهر.

ولما زاره صديقه وقريبه صالح بن عبدالعزيز الشايع فَرِحَ به، وأَنِس بحديثه، ولما همَّ بالانصراف قال له صالح: يا خالي! هل تأمرني بشيء أو توصيني بشيء؟ فقال له الشاعر محمد الجاسر: ليتك تجلس عندي، وتؤنسني.

قال الشاعر الكبير ذلك، وربما لم يطمح بأكثر من أن يمكث عنده ساعةً أو أقل، أو أن يظفر منه بموعد زيارة قادم.

فماذا كان من ذلك الشهم الكريم صالح؟ وماذا تتوقع أيها القارئ لهذا الكلام؟ هل وعده بزيارة قادمة؟ أو جامله وجلس ساعةً من نهار أو يوماً أو بعض يوم؟ وهل اعتذر وتلطف بالاعتذار؟ أو أجابه بِتَكَرُّهٍ وضيق نفس؟

لا ، بل قال له: أبشر بما يسرك ، وسوف أرافقك حتى تخرج من المستشفى ، فسُرَّ الشاعر الكبير بذلك الشعور النبيل ، وفرح أيما فرح ، ورافقه صالح الشايع إلى أن خرج من المستشفى ، وكانت مدة المرافقة تزيد على شهرين!!.

فهذا موقف جدير بالإعجاب ، ويزداد إعجابك إذا علمت أن شاعرنا الكبير ليس له أولاد ، وجاء إلى الرياض بعيداً عن مسقط رأسه الزلفي ، وإذا علمت -كذلك- أن صالحاً كبيرٌ في السن ، وله أولاد وبيت يحتاج إلى رعايته ، وله مصالح أخرى تحتاج منه أن يقف عليها.

أما القصة الثانية فقد حصلت للشيخ المربي الوجيه فوزان بن فهد الفهد ، وهو من الكرام الأجواد الذين لهم الأيادي البيضاء في أعمال البر الخيرية عموماً ، وفي بلده الزلفي على وجه الخصوص.

وقد توفي رحمه الله عام ١٤٣٤هـ ، فكان الحزن عليه شديداً.

وللشيخ فوزان أخ غير شقيق ، وهو الأخ الفاضل الجواد محمد بن فهد الفهد ، وهو يصغر أخاه فوزان في السن.

والذي يعني ههنا قصة حصلت بين هذين الأخوين وذلك عام ١٤٠٤هـ تقريباً ، حيث كان فوزان معلماً ورجل أعمال ، وكان أخوه محمد ممن يملكون سيارات النقل الكبيرة التي تنقل المواد البترولية ، حيث كان لديه سيارة من ذلك النوع يقودها بنفسه.

وفي تلك الأثناء أصيب فوزان بحادث سير ؛ فحصل عنده كسور ، ولزم إثرها مستشفى الحرس الوطني في الرياض عدة أشهر.

وكان أخوه محمد يزوره باستمرار، وفي يومٍ من الأيام كان محمد قد استعد للذهاب بسيارته الكبيرة إلى المنطقة الشرقية؛ فمر بالمستشفى؛ ليزور أخاه، ويودعه قبل الذهاب؛ فمكث عنده مدة يسيرة.

ولما همَّ بتوديعه لاحظ من نبرة صوت أخيه وقسمات وجهه أنه راغب في تطويل الزيارة؛ فما كان من محمد إلا أن جلس عند أخيه فوزان، ورافقه في المستشفى حتى خرج منها سليماً معافى بعد مدة تقرب من الشهرين.

وكان أخوه فوزان يطلب منه الذهاب إلى عمله، ويقنعه أنه بخير، وأن أبناءه -أي أبناء فوزان- يقومون باللازم، ولكنه رفض ذلك كله، وآثر المكث عند أخيه؛ ليؤنسه، ويُسْعِدَهُ، ويَسْعَدَ به.

والطريف في الأمر -كما يحدثني الشيخ علي بن عبدالمحسن الشايع- أن سيارة محمد الكبيرة ظلت واقفة في المستشفى طيلة تلك المدة.

فهذا الصنيع، والذي قبله جمعا أنواعاً شريفة من أنواع الجود، ومنها الجود بالوقت، والجود بالمواساة، والجود بالمسامرة، والجود بالإيناس، ونحو ذلك.

رعاية مسكين

القيام على الضعفاء والمساكين شعبة إيمانية - ترفع بها الدرجات، وتقال العثرات، ويُتَنَزَّل بها النصر، والرزق، والرحمات.

وهنا حكاية ربما لا يصدِّق بها بعض الناس؛ لكونها غريبةً في بابها.

وهذه الحكاية أو الحادثة يعرفها فئام من أهل بلدنا الزلفي؛ وملخصها أن هناك رجلاً كبيراً في السن، وكان منذ نشأته ضعيفاً مسكيناً من ذوي المدارك القاصرة، ولا يستطيع القيام بأدنى شؤونه الخاصة من نحو الملبس أو المأكل، فضلاً عن تدبير المعيشة والسعي لطلب الرزق.

ولم يكن لهذا الرجل زوجة ولا أولاد، وإنما كان له أقارب فضلاء لا يُقَصِّرون في حقه؛ ولكنه كان يألف أناساً بعيدين عنه، ولا تربطه بهم صلة قرابة، ولكنهم كرام ذوو نخوة ومروءة وشهامة وديانة؛ فكان مغداه ومراحه عليهم؛ حيث ينام عندهم، ويتناول طعامه معهم، ولا يفارقهم إلا لأمور عارضة كأن ينام بعض الأحيان في المسجد، أو أن يذهب إلى زيارة أحد من الناس.

وقد استمر على تلك الحال سنوات طويلة، وهؤلاء يتولون شؤونه بكل عناية وأريحية.

ولهم معه في ذلك الشأن ما يطول منه العجب؛ إذ الأمر لا يقف عند العناية به في طعامه، وشرابه وملبسه، بل يتعدى ذلك إلى شؤونه الخاصة، فكان أحد أبناء تلك الأسرة المباركة - وهو شاب في مقتبل عمره - يتولى أخص أمور ذلك المسكين، فكان يُعنى بمظهره، ونظافة جسمه، وتعاهد شَعْرِه؛ فلا ترى ذلك المسكين إلا في أحسن هيئة تليق بمثله.

وكان ذلك المسكين لا يطيق فراق تلك الأسرة ، ولا يذهب لأحد غيرهم من أقارب ومعارف إلا لماماً ، وقد استمرت تلك الرعاية إلى أن فارق ذلك الرجل الدنيا بعد أن جاوز السبعين من عمره.

ولا ريب أن القيام بمثل ذلك العمل لا يتأتى إلا لمن رزق صبراً ، واحتساباً ، ونفساً كبيرة ، ومروءة جزلة؛ إذ الأمر ليس معروفاً عارضاً ، أو مالاً يُدفع في حينه وينتهي الأمر بذلك.

وإنما هو ملازمة مستمرة ، وتدفُّع في الخدمة ، وتلذذ بالمعروف ، ورغبة فيما عند الله.

وإلا فماذا يرجى من مثل ذلك المسكين الذي لا خيل عنده ، ولا مال ، ولا نطق يسعده ، ويسعد به من قام على خدمته.

إذا عز أخوك فهن

يحدثني ابن عمي : أحمد بن محمد بن أحمد الحمد -رحمه الله- وقد توفي عام ١٤١٤هـ عن عمر يناهز الثمانين عاماً عن قصة حدثت بين أخوين كان بينهما شراكة، وكان أحد هذين الأخوين قائماً بإصْر العمل، والآخر لا يكاد يعرف شيئاً من ذلك، وكان حقه يأتيه كاملا مُوَفَّراً.

وفي يوم من الأيام جاء أحد شياطين الإنس؛ فأغرى هذا الأخ بأخيه؛ فقال له : إنك لا تعلم شيئاً عن شؤون الشراكة، وإن أخاك فلاناً يلعب بمال الشركة، ويوسع على نفسه دون علمك، ويأخذ النصيب الأكبر، ولا يعطيك إلا القليل من حقك، وأنت لابد أن تضع لهذا الأمر حداً، وتُوْقِفُ أخاك عن هذا الصنيع.

فما كان من هذا الأخ إلا أن صدق ذلك المُفْسِد، وصار يبحث عن الطريقة المناسبة للحيلولة بين أخيه وبين ما يقوم به -كما خُيِّل إليه-.

وبعد تفكير ومشاورة مع ذلك المُشِيْر المفسد رأى أن يرفع دعوى على أخيه يطالبه برد حقوقه إليه، ويسعى - كما يزعم - إلى إيقافه عن التصرف غير المسؤول بأموال الشركة؛ فرفع دعوى دون أن يكون لديه بينة أو مستند يتمسك به، وإنما هي مجرد أوهام، وظنون سيئة حاكها ذلك المشير المفسد؛ وتلقفها هذا الأخ الجاهل دون تدبر أو رَوِيَّة.

وبعد أن قام بالإجراء الرسمي في رفع تلك الدعوى وصل الأمر إلى القاضي، فحدَّدَ للقضية موعداً في يوم من الأيام دون علم الأخ الآخر الذي بَلَغَه استدعاءٌ من المحكمة؛ كي يحضر، ويَمْثُل أمام القاضي في ذلك الموعد المحدد.

ولما حان وقت الموعد ذهب إلى المحكمة، فَمَثُل أمام القاضي، ورأى أخاه الشقيقَ أمامه في مجلس القضاء؛ فبهره الأمر، وأصابه الذهول؛ لما يرى.

وبعد أن أخذ مكانه في مجلس القضاء بدأت الجلسة، وبادره القاضي بقوله: إن هناك دعوى مقدمةً ضدك.

فسأل الأخُ القاضيَ عن تلك الدعوى وفحواها، وعن مُقَدِّمِها، فأجابه القاضي بأن مقدمها هو هذا الماثل أمامك، وأن فحواها شراكة بينكما، ويدعي خصمك أنك قد أخللتَ بحقوق الشركة، ولعبت بأموالها، واستأثرت بالنصيب الأوفى دون أخيك الشريك.

فقال ذلك الأخ بدهشة: وهل المدعي عليّ هو أخي هذا الماثل أمامي؟!

فقال القاضي: نعم، فسأل الأخ أخاه: هل أنت الذي رفعت الدعوى ضدي؟ قال: نعم، قال: وماذا تريد إذاً؟ قال: الشرع يفصل بيني وبينك.

حينئذٍ قال الأخ المُدَّعَى عليه للقاضي: هذا أخي ادعى عليّ، وأنا بكامل قواي العقلية، ولا أقول لك إن له عليَّ ما ادعى مما يخص الشركة فحسب، بل أقول: إن كلَّ ما أملكه مما يخص الشركة، أو يخصني وحدي- كل ذلك تحت تصرف أخي هذا؛ فله أن يأخذ ما يشاء، وأن يدع ما يشاء، وأريد يا فضيلة القاضي أن تُثْبِتَ ذلك عليّ؛ لأن الذي بيني وبين أخي أكبر من ذلك كله، ولو علمت برغبته لما ألجأته إلى رفع تلك الدعوى.

وما إن انتهى الأخُ المدَّعى عليه من كلامه إلا وقام الأخُ المدعِي من مكانه، وقال للقاضي: لا تكتب شيئاً، ثم أخذ برأس أخيه يقبله، ويبكي بكاءً حارًّا مرًّا، وهو يقول: سامحني يا أخي، حسبي الله على فلان؛ لقد أغراني بك، وملأ

قلبي عليك، وأنا الملوم؛ لأنني صدَّقته، وأسلمت قيادي له؛ فأرجو منك يا أخي أن تغفر لي هذه الزلة، وأن تدع الأمور تبقى على ما هي عليه.

فقال له أخوه المُدَّعى عليه: الأمر يسير، وهذه نزغة شيطان، وإذا أردت الانفصال من الشركة أو الاستمرار فيها فلك ذلك، ثم تعانقا طويلاً، وأنهى القاضي الجلسة، وأقفل مِلَف القضية بهذا الموقف النبيل من ذلك الأخ العاقل الكريم الذي جَسَّد بذلك الموقف معنىً عالياً، وصورة مثالية للأخوَّة الصادقة، والمروءة الجزلة.

ولو أن ذلك الأخَ عَامَلَ أخاه بالعدل لا الإحسان لربما ثارت الثوائر، وقامت فيهما داحس والغبراء بينهما، ولربما انقطعت بينهما أسباب المودة، وتوارث أولادهما العداوة والقطيعة.

ولكنه البر والإحسان الذي يقلب العداوة إلى ولاية، والمناوأة إلى ألفة.

ولكنه الرفق الذي ما كان في شيء إلا زانه، وما نزع من شيء إلا شانه.

وفاء كفيل

يحدثني أحد أفاضل القضاة أن ورثةً تقدموا إليه طالبين إفراغ أرض كانت لوالدهم المتوفى لصالح إحدى الجهات الخيرية.

يقول ذلك القاضي الفاضل: «ولما أردت إفراغها لتلك الجهة الخيرية كان لابد لي من الاطلاع على صك الأرض، ووصية الميت، وما جرى مجرى ذلك؛ فرأيت في الوصية أن ذلك الميت قد نص على أعمال برٍّ كثيرة؛ حيث كان من أرباب الأموال الطائلة.

ولكن الذي راعني، ولفت نظري كونه قد أوصى بأن يُعطى مكفولٌ له من الجالية الهندية مبلغ عشرين مليون يورو - أي ما يعادل مائة مليون ريال سعودي - ويعطى ابن لذلك المكفول مبلغ عشرة ملايين يورو؛ فتعجبت من ذلك الإجراء الغريب، ولكني لم أتطفل لأسأل أولئك عن سبب ذلك» ا.هـ

فهذه قصة غريبة حقًّا، ولقائل أن يقول: ربما يكون لذلك العامل يدٌ على كفيله، وقد يكون سبباً في خير عظيم له.

ومهما يك من شيء فإن ذلك وفاء منقطع النظير؛ إذ العامل المكفول يكفيه القليل من ذلك، بل يُحْسن إليه كفيله إذا أعطاه حقه دون وكس أو تطفيف، وإذا تكرم الكفيل فأحسن معاملته، أو كافأه عن بعض عمله فذلك معدود في مكارم الأخلاق.

أما أن يبلغ به الحد ذلك المبلغ من الكرم فذلك معدود في جملة الغرائب.

كما أن ذلك الصنيع يعد من جملة المكارم لورثة ذلك المحسن؛ حيث لم يتصرفوا في الوصية، أو يخفوا ما أوصى به مورِّثهم - كما يصنع بعض من لا خلاق لهم - .

فأين هذا الوفاء الغريب من أقوام يبخسون من تحت أيديهم أقلَّ حقوقهم المادية والمعنوية؟ وأين هذا من أناس يتسلطون على من تحت أيديهم بالأذى والظلم؟

إن هذه الصورة الرائعة لمن أجمل ما تراه أو تسمعه من قصص الوفاء، و:

إن الكـــرام إذا مـــا أســـهلوا ذكـــروا   مـن كـان يـألفهم في المنـزل الخشن

بالَّتي هي أحسن

يحدثني ابن عمي الشيخ أحمد بن سليمان بن ناصر الحمد ـ حفظه الله ـ أنه قبل سنوات كان إماماً لأحد المساجد في مدينة الرياض، وكان من ضمن جماعة المسجد رجلٌ كبيرٌ في السن، ومن المحافظين على صلاة الجماعة، وممن آتاه الله بسطة في الرزق؛ حيث كان من أرباب العقار، ومن ذوي الأموال الطائلة، ومن ذوي الفضل والإحسان.

يقول الشيخ أحمد: «إن ذلك الرجل يجلس في المسجد بعد الصلاة كثيراً، ويحدثني أحياناً عن نعمة الله عليه، وما حصل له من اليسر بعد العسر.

ومن جملة ما حدَّث به أن قال: إنني قبل سنوات طويلة كنت في مقتبل عمري، وخرجت من نجد إلى أحد البلاد الشامية؛ لطلب الرزق، وعملت عند تاجر في ذلك البلد؛ حيث كانت له محلات تجارية، ولديه عمال كثيرون.

وكان ذلك التاجر قاسياً متسلطاً فظاً غليظ القلب، وكان يعاملني بكل شراسة وقسوة وفظاظة دون مراعاة لحالتي من الفقر والغربة.

ولم يكن لي بدٌّ من الصبر، فما أنا إلا مضطر، وما حيلة المضطر إلا ركوب الأسنة إذا لم يكن إلا هي مركباً؛ فمكثت على هذه الحال سنوات.

وبعد أن دارت الأيام دورتها، وجاء الله بالخير، فحصل الغنى في السعودية، وتفجرت آبار البترول فيها، وصار الناس يقصدونها؛ لطلب الرزق ـ رجعت إليها، وصرت أتسبب في طلب الرزق، ففتح الله لي أبوابَ خيرٍ كثيرة، فصرت كما ترى من هذا الخير العظيم الذي أسأل الله أن يوزعني شكره، ويعينني على أداء حقوقه».

والشاهد من هذه القصة، هو ما سيأتي؛ حيث يقول الشيخ أحمد: «ومن جملة ما حدثني به ذلك المحسن أن قال: إن من عجائب التدبير الإلهي أن يكون لدي عمال كثيرون، وأن يكون من بين هؤلاء العمال ذلك التاجر القاسي العاسي الغليظ الذي كنت أعمل عنده، وكان يسومني سوء العذاب؛ حيث انقلبت حاله رأساً على عقب، فلقي صَغاراً بعد شمم، وذلاً بعد عزٍّ، وفقراً بعد غنى، فساقه قَدَرُه إلى أن يأتي إلى السعودية؛ لطلب الرزق، وأن يكون من جملة عمالي.

ويواصل ذلك التاجر المحسن حديثه قائلاً: والله إني لأتذكر ما كان يعاملني به من القسوة وقلة المراعاة لحال الفقر والغربة؛ فتحدثني نفسي، وتلح عليَّ بأن أذيقه شيئاً من تلك المرارة التي أسقاني إياها؛ ولكني أُنَهْنِهُهَا وأزجرها بشدة، وأقول: إن ذلك ليس من شكر النعمة، وارحموا عزيز قوم ذلّ؛ فوالله ما لقي مني إلا الإكرام وحسن المعاملة» اهـ.

بقي أن يقال: إن ذلك التاجر توفي قبل سنوات قليلة، وبقيت أعمال البر تتوالى له، وذكره الحسن يزداد يوماً بعد يوم، ومن جملة ذلك هذه الحادثة التي تُنِمُّ عن نفس زكية، وساحة طاهرة، ومروءة باذخة.

زفرة حنين ولمسة وفاء

لي قريب صديق من أعز الأقارب والأصدقاء أعرفه منذ الطفولة الباكرة بمروءته، وصدقه، وأخلاقه الطاهرة.

هذا الصديق القريب توفيت والدته في مقتبل عمرها؛ إذ كان عمرها لما فارقت الحياة ثنتين وعشرين سنة، وكان عمر صاحبنا أنذاك سنةً ونصف، حيث أنجبت والدته أختاً له، ثم أنجبته، ثم أنجبت أخاه الثالث، وبعد ولادته بأيام فارقت الحياة بسبب مرض أصابها.

وفي يوم من الأيام كنت أنا وصاحبي عائدين من سفر عبر السيارة؛ فكنا نتجاذب أطراف الأحاديث التي نقطع بها الطريق، فحدثني حديثاً لم يخطر بباله أنه سيقع مني موقعه، أو أنه سيكون له ذلك الدويّ بعد أن غردت عنه تغريدتين مختصرتين عبر (تويتر) فكان لهما أثر بالغ في نفوس من قرأوا تلك التغريدتين، أو علّقوا عليهما، أو عبروا عن ذلك مشافهة.

ولما أخبرته بذلك أخبر والده بما حصل، ولم يخطر بباله أن ذلك الحديث سيبلغ من والده ذلك المبلغ المؤثر الذي جعله يكفكف دموعه طيلة الطريق الذي كانا يسيران فيه وهما قادمان من سفر.

وخلاصة ذلك الحديث أن صاحبي تكلم عن والدته، وأخبر أنه لايذكر هيئتها البتة؛ إذ كيف يذكرها وعمره لما توفيت سنة ونصف؟

وأخبرني أن جدته لأبيه كانت على الوجود وتوفيت قبل سنوات، وأن جدته لأمه حية ترزق إلى الآن، وأن الله عوضه بهما الكثير من جراء فقد

الوالدة، وأن والده الكريم الذي هو كالصديق الحميم له قد أشرق عليه بعطفه وحنانه صغيراً، وكان نعم الأنيس والصاحب عندما كَبِر وشب عن الطوق، كما أن لصاحبنا أعماماً كالآباء بالنسبة له.

يقول صاحبي: وبالرغم من ذلك كله فقد بقيت في نفسي غصة ولهفة وشوق لا يُتَصَوَّر على والدتي؛ فأنا الآن قريب من الخمسين، ولا تكاد ذكرى والدتي تغيب عني لحظة، وأشعر بين الفينة والفينة أنني سأقابلها، وإذا سمعت أحداً ينادي أمه تذكرت والدتي، ولولا أني أؤمل وأحسن ظني بربي أنني سأراها في آخرتي لربما تضاعفت تلك اللهفة.

ويواصل صاحبي حديثه قائلاً: وأخبرك أن قبرها لا أعرفه على وجه التحديد، وإنما أعرف جهته في المقبرة، حيث قال لي بعض أقاربي: إنه في تلك الجهة؛ فكنت أسلم عموماً على تلك الجهة؛ رجاء أن أكون قد أدركت ذلك القبر، أو قربت منه.

وهكذا استرسل صاحبي في الحديث على هذا النحو، الذي يعبر من خلاله عن مدى شوقه لأمه.

والذي أكاد أجزم به أن صاحبي لم يترك باباً من أبواب البر التي يستطيع أن يَبُرّ أمه من خلالها إلا سلكه.

أما بيت القصيد، ونفثة السحر في ذلك الحديث المشجي فيكمن في قوله بعد أن تأوَّه آهةَ الرجلِ الحزين: سأحدثك حديثاً ربما لم أتحدث به قبل هذه المرة؛ فزادني شوقاً إلى ذلك الحديث، فقلت: وما هو؟.

قال: لما كانت ليلة زواجي، وذهبت إلى منزل أهل الزوجة، وبعد أن دخلت بزوجتي، ومكثت في منزل أهلها وقتاً قصيراً - خرجت بها؛ لكي أذهب إلى

منزلي الجديد، وبينا أنا في الطريق، ومن دون سبق تخطيط أو إعداد أو تفكير وجدتُني أُعرِّج بسيارتي نحو المقبرة التي دفنت فيها والدتي.

ولما وصلت إلى هناك ترجَّلتُ، ومشيت إلى حيث ناحية القبر، ثم وقفت، وتمتمت بكلمات لم أرتب لها، وقلت: يا أمي لقد تزوجت هذه الليلة من فلانة، وأخذتها قبل قليل من بيت أهلها، وأنا الآن متجه إلى بيتي الجديد، والسلام.

ثم خرجت من المقبرة وأنا أكفكف دموعي، وركبت السيارة، وذهبت إلى منزلي وسط ذهول زوجتي؛ فهذا أحد المواقف التي تمر بي في ذكرى والدتي التي:

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لي أمي بكل سبيل

ولما انتهى من ذكر تلك الحادثة وجمنا برهة في لحظة سكون وذهول، ثم واصلنا الحديث إلى أن وصلنا بلدنا.

وبعد فترة قريبة قابلت صاحبي، وأخبرته عن أثر تلك القصة في نفسي، وأني حدثت بها كثيرين، وغردت بها عبر تويتر بتغريدتين؛ فكان لهما أبلغ الأثر في الوفاء والبر للوالدة بعد موتها.

فعجب صاحبي من ذلك، وقال: لم يخطر ببالي أن تبلغ تلك الحادثة ما بلغت.

وبعد مدة قابلت صاحبي، فقال لي: لقد كنت في سفر عبر السيارة مع والدي؛ فأردت أن أقطع الطريق بالحديث معه، فأخبرته بما دار بيني وبينك؛ فما

راعني إلا ذلك النشيج من والدي؛ حتى إنه كلما هم بالحديث عاوده النشيج؛ فاستحيا منِّي، وارتدى نظارته الشمسية بالرغم من أننا نسير في الليل.

فهذه هي خلاصة حكاية ذلك الصديق القريب، وهي ترينا لوناً من ألوان البر للوالد بعد الوفاة، وتعطينا درساً حيًّا في الوفاء ورعاية الحقوق حتى بعد الممات، وصدق أبو الطيب إذ يقول:

إن خير الدموع عيناً لدمعٌ بعثته رعايةٌ فاستهلا

والعجيب أنني حدثت بهذه القصة بعض الأحبة؛ فكان بعضهم بعد الحديث يستأذن، ويقول: أجد الآن في نفسي شوقاً لأمي لا أستطيع مقاومته؛ فلا بد لي من الذهاب لرؤيتها.

أما أنا فإذا حدثت بهذا الحديث تذكرت والدتي، فأترحم عليها، أو أتصل بإحدى خالتَيَّ ـ متعهما الله بالعافية ـ لأجد روح والدتي، أو أذهب إلى قبرها؛ لأسلم عليها.

وإذا دخلت المقبرة في جنازة ما ـ صرت أنظر إلى قبرها، وأتذكر بيتي الأحوص:

يا دار عاتكة التي أتغزَّل حذر العدا وبك الفؤاد موكَّلُ

إني لأمْنَحُك الصدود وإنه قسم إليك مع الصدود لأمْيَلُ

أو قول جميل:

أقلب طرفي بينهن فيستوي وفي القلب بونٌ بينهن بعيد

إخلاص طبيب

حصل قبل سنوات حادث اصطدام مروري لشاب قريب لي، فأصيب من جرائه بإصابات بالغة الخطورة، فلما نُقل إلى المستشفى كادوا يجزمون بوفاته؛ لأن الأمارات تدل على ذلك؛ حيث أصيب بنزيف داخلي في عدة مواضع من كبده، وطحاله، وأمعائه، إضافة إلى كسور في يده، ورجله، وغير ذلك مما لا يحضرني الآن؛ فقد قرأت تقرير حالته، وهذا ما أذكره حال كتابة هذه الأسطر.

ولمّا حصلت الشورى في شأنه بين بعض الأطباء وبعض إخوانه رأى بعضهم أن يُنقل إلى مستشفى أرقى، وأكثر إمكانات؛ لأن مستشفى الزلفي آنذاك لم يكن على درجة من الكفاءة، والقدرة على استيعاب مثل تلك الحالة.

ولما عزموا على نقله وقف لهم الطبيب الذي باشر الحادث ـ وكان رجلاً فاضلاً، ذا خلق ودين وأمانة أحسبه كذلك والله حسيبه وهو من أهل مصر ـ فقال: لا يمكن أن يُرسل هذا المصاب إلى أي مكان؛ لأنه لا يَحْتَمِلُ تأخيرَ إجراءِ العملية له، ولو أُخِّرتْ ولو وقتاً يسيراً لربما فارق الحياة.

فقالوا له: إن إمكانات المستشفى لا تتحمل إجراء العملية، فهل تتحمل مسؤولية هذا المصاب لو حصل ما حصل؟ فقال الطبيب بكل شجاعة وأمانة: نعم، ولو حصلت وفاة لكنا فعلنا غايةَ ما يمكننا من الأسباب.

وأخشى أن نكون مُفَرِّطين إن نحن أرسلناه إلى مستشفى آخر؛ لأن النزيف الداخلي قد يودي بحياته إذا تأخر إيقافه.

فما كان من جراء تلك المشاورة إلا الإذعان لرأي ذلك الطبيب الذي كان بإمكانه أن يُخْلِيَ مسؤوليته، ويعتذر بتواضع إمكانات المستشفى، وقد لا يلام لو تصرف على هذا النحو.

ولكنَّ إخلاصه، وشعوره بالمسؤولية، والأمانةِ الملقاة على عاتقه ـ كل ذلك حمله على القيام بتلك المبادرة العظيمة الخطيرة، التي سلم لها جميع الحاضرين، وانشرحت صدورهم لذلك القرار الشجاع؛ فأُدخل صاحبُنا المصابُ غرفة العمليات ليلاً، وكنت في المستشفى مع بعض إخوانه، ولم يكن أكثرنا تفاؤلاً يُقَدِّر أن يعيش ذلك الرجل.

ولكن لطف الله فوق ذلك كله؛ حيث أُجريت له العملية، واستغرقت وقتاً طويلاً؛ حيث استأصل الطبيب أجزاءً من كبده، وطحاله، وأمعائه.

وبعدها رجع ذلك الرجل إلى وضعه الأصلي، واسترد عافيته شيئاً فشيئاً إلى أن شُفي تماماً، وهو الآن حَيٌّ، وقد رزق بأولاد بعد ذلك.

وهذا كله بفضل الله، ثم بفضل ذلك الطبيب الصادق المخلص الأمين.

تُرى لو كان هَمُّه مصلحته الخاصة، وكان ممن لا يعنيه المريض بحال؛ هل ستكون النتيجة ما حدث؟

أترك الإجابة للقارئ، وأقول: **فرق كبير بين طبيبٍ همه الأكبر إخلاء مسؤوليته، وطبيبٍ يسعى سعيه لإنقاذ مريضه.**

وعلى هذا فقس؛ سواء كان في حق الموظف، أو الرئيس، أو المعلم، أو كل من يُسند إليه عمل.

تقدير المسؤولية

أعرف شخصاً يعمل في إدارة التوجيه في إحدى القطاعات التعليمية منذ فترة طويلة، وكان مثال الجد والإخلاص والمثابرة، وتقدير المسؤولية، وكان زملاؤه يعرفون ذلك عنه جيداً.

ولما قرب وقت تقاعده عن العمل تابعه أحد أقرانه المقربين إليه؛ ليرى كيف تَسِيْر وتيرةُ عمله في آخر أيامه، فتابعه في آخر شهر فلم يَرَ شيئاً تَغَيَّرَ من همته، ونشاطه، وتَدَفُّعِه، وحرصه على عمله.

فقال: لعل ذلك النشاط يخبو في آخر أسبوع، فلم ير تغيراً في الأسبوع الأخير، فتابعه في آخر يوم، وقال: لا بد أنه سيخرج قبل نهاية الدوام، أو أنه سيسند بعضَ أعمالِه إلى أحد زملائه، فلم يكن شيء من ذلك، بل إنه لم يخرج من عمله في ذلك اليوم إلا بعد آخر ثانية من وقت العمل؛ حيث خرج مرفوع الرأس، موفور الكرامة، سعيداً بأمانته، مستبشراً بصفاء قلبه، وطيب مطعمه، فصار بذلك قدوة لزملائه، وكل من سمع بأمره.

وأعرف رجلاً تولى عمادة إحدى الكليات في جامعة من الجامعات فترة وجيزة من الزمن، فارتقى بالعمل، وصعَد به إلى مراتب عالية من المجادة، ثم ترك العمل بعد أن انتهت فترة رئاسته.

والغريب في الأمر أنه كان متفانياً في عمله، مستغرقاً فيه حتى آخر لحظة، حتى إن بعضَ مَنْ هُمْ تحت إدارته شكّوا في كونه سيترك عمله.

ولا ريب أن هذه النماذجَ وأمثالَها مفاخرُ تُرفع بهم الرؤوسُ، ويكون لهم

الأثـر البـالغ في النفـع، والتطـوير؛ فيـا لـسعادة أولئـك المخلـصين، ويـا لعظـم أجورهم، وتسلسل نفع أعمالهم.

فأين أولئك من أناس لاهمَّ لواحدهم إلا مصلحته الخاصة فحسب؛ فتراه لا ينتمي إلى العمل الذي يقوم به، ولا يشعر تجاهه بالإخلاص، والصدق، والحرص على الارتقاء.

وإذا شعر بأن فترة عمله ستنتهي قَلَّ إنتاجه، وصار على مبدأ المثل العامي الدارج: «إذا كنت رائحاً فأكثر من الفضائح».

فإذا ودَّع هريرة أطاق وداعها، وإذا فارق العمل فارقه بذكريات أليمة، وسمعة سيئة، وربما أمانات مضيعة، وعند الله تجتمع الخصوم.

ولعل هذا يفسر لنا تقدمَ العمل، وتطورَه في ميدان، وتأخرَه، وتخلفَه في ميدان آخر، وسِرَّ رُقِيِّه إذا تولى زمامَ أمره شخصٌ، وانحطاطَه إذا تولاه آخر، مع أن المكان واحد، وأن النظام هو هو.

وكم نحن بحاجة إلى ثقافة عامة تقود إلى تقدير المسؤولية، ومحبة العمل، والإخلاص فيه، والحرص على الرقي به.

وكم نحن بحاجة -كذلك- إلى محاربةِ البطالـةِ، والفـسادِ، والمبالغـةِ في حـبِّ الذات، وقلةِ الاهتمام بالمصالح العامة.

كأنه والد

قرأتُ بيتاً للأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي رحمه الله ضمن قصيدة في مدح أمير المؤمنين الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول فيه:

ولم يكن أحدٌ يلهيه عن أحد كأنه والد والناس أطفال

فلفت نظري شطرُ البيتِ الثاني؛ لأن فيه إشارةً إلى معنى عظيم كبير، ألا وهو معنى الأُبُوَّة؛ فبعض الناس يمتلك شعوراً بالأبوة؛ حيث تراه يَحْدِبُ على إخوانه، وأصدقائه، وزملائه، ويسعى سعيه في مصالحهم، ويحمل همومهم دون أن يُحَمِّلَهُمْ أدنى شيء من أمره.

وربما لاقى منهم ما لاقى من جهل وكنود.

وهذه الخصلة يهبها الله لمن يشاء من عباده، وقد توهب -في الغالب- للكبير من الإخوة؛ حيث يكون هو المسؤولَ الأول بعد والده من جهة رعايتِهِ إخوانَه، وتحملِ مسؤولية المنزل؛ فيعتاد المروءة ناشئاً، فتهون عليه كهلاً.

ولا يلزم أن يقتصر ذلك المعنى على الكبار، بل قد يمتلك تلك الخصلة أوسطَ الإخوةِ أو أصغرَهم.

وأعرف رجلاً هو أصغر إخوانه، وقد لا يلام لو كان ذا نفس صغيرة، أو كان ذا دلال، أو كثرة طلبات.

ومع ذلك فهو أكبرُ إخوانه نفساً، وأشرفُهم همة، وأكثرهم تحملاً للمسؤولية؛ فلا يكاد إخوانه -وهم كثر- يعرفون إلا القليل من شؤون المنزل، أو رعاية الوالدين.

أما صاحبنا فهو يقوم بذلك بكل جدارة وأريحية؛ فهو الذي يتولى جميع ما يحتاجه والداه من نحو العلاج، أو السفر، أو الرعاية عموماً، ويتولى شؤون مزرعة والده.

بل ويقوم -مع ذلك- بكثيرٍ مِنْ حاجات مَنْ يكبره مِنْ إخوانه، إضافة إلى قيامه بشأن زوجته وأولاده و﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ (المائدة: ٥٤) والمعونة على قدر المؤونة.

لا تنظرنَّ إلى الفَيَّاضِ في صغرٍ ... في السن وانظر إلى المجد الذي شادا
إن النجومَ نُجوم الليل أصغَرُها ... في العين أبعدها في الجو إصعادا

وأعرف معلماً قديراً أمضى ما يزيد على عشرين سنة في التعليم، وهذا المعلم ذو نفس كريمة كبيرة واسعة، وذو تَدَفّعٍ في الخدمة، وأريحيةٍ في تقديم المساعدة؛ حيث يقوم بالمبادرات الكثيرة الكبيرة لزملائه وطلابِه، وأساتذته، وأصدقائه، وغيرهم دون مِنَّةٍ أو تباطؤ؛ فكأنه هو المعنيُّ بقول الأول:

فكنتَ لناشيهم أباً ولِكَهْلِهم ... أخاً ولذي التقويسِ والكَبْرةِ ابنما

ذو التقويس والكَبْرة: هو كبير السن الذي تقوس ظهره من الكِبَر.

وقول الآخر:

وكنت لهم عَمّاً لطيفاً ووالداً ... رؤوفاً وأماً مَهَّدتْ فأنامتِ

بل إن أحد زملائه الأفاضل يحدثني أن بعض الزملاء ممن يصغرون ذلك المعلم بمراحل - يوصونه بالقيام ببعض الأعمال، أو يكلفونه ببعض المهمات، أو هو يبادر إلى ذلك من تلقاء نفسه دون طلبهم؛ فيقوم بذلك، وهو مسرور القلب، قرير العين.

بل إنهم من شدة دَالتِهم عليه ربما عاتبوه إذا رأوه مشتغلاً بأموره الخاصة عن خدمتهم، وإنجاز أعمالهم الخاصة بهم؛ فلا يتبرم من ذلك، بل يعتذر إليهم، وكأنه مذنب، ولسان حاله:

.... وتـــذنبون فنـــأتيكم ونعتـــذر

ولصاحبنا هذا قصص وأخبار من هذا القبيل يطول ذكرها، وينقضي منها العجب.

وهذا الضرب من الناس نادر قليل، ولكنهم -بحق- من زينة الحياة الدنيا، وممن يضفون عليها جانباً من الرونق، والروعة، والجلال، والجمال.

تعامل راقٍ مع زوجة الأب

كان لوالد أحد الأصدقاء الفضلاء زوجتان، وكانت أم ذلك الصديق هي الزوجة الأولى.

وكان ذلك الصديق أكبر إخوانه، وكان يشكو كثيراً من برود العلاقة بينه وبين زوجة والده، وإخوانه لأبيه، ويروي قصصاً من هذا القبيل منها جفاء إخوانه لأبيه، وقلة اعتداد زوجة أبيه به، إضافة إلى ما بين أمه وزوجة أبيه من الغيرة، وما ينتج عن ذلك من تكدر والده، وأثر ذلك على الأسرة عموماً.

فقلت له: لا تثريب عليك في بر أمك، ولا تثريب على أمك في غيرتها من ضرتها ما لم تتجاوز الحد.

أما أنت فلا يحسن بك إلا أن تلطف الأجواء؛ فأنت أكبر إخوتك، والمنزل يحتاج إلى حكمتك، وإضفاءِ جوٍّ من السكينة عليه.

فقال: كيف ذلك والعلاقة بيننا بهذه الدرجة من الفتور؟

فقلت له: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾.

فقال: وماذا أصنع؟ قلت له: بإمكانك أن تغير نظرتك، ومعاملتك لزوجة أبيك؛ فهي أم إخوانك، وعِزُّ إخوانك عِزٌّ لك، وبرك بها بر بأبيك؛ فإن أبر البر صلة المرء أهلَ ودِّ أبيه، وهي من أهل ود أبيك، كما أنها جارة لكم في المنزل.

ثم إن ذلك سبب في بقاء كيان الأسرة متماسكاً، وإخوانك محتاجون لك، وأنت محتاج إليهم.

وإذا كانت العلاقة فاترة فستكون العاقبة وبيلة عليكم جميعاً، سواء في حياة والدك، أو بعد فراقه الدنيا، بل ربما زادت المشكلات تعقيداً.

وقلت له: إن هناك من الناس من يعامل زوجة أبيه وكأنها أمه، وهي تعامله وكأنه واحد من أبنائها، والتوتر الذي يوجد عند كثير من الناس في هذا الصدد إنما هو بسبب ضيق العطن، وقلة الصبر، وضعف القدرة على التوازن، وإعطاءِ كل ذي حق حقه، وقلة التدبرِ في عواقب الأمور، والنظر من زاوية ضيقة، ومن خلال نظارة سوداء قاتمة.

وقلت له: إذا اقتنعت بذلك فلا يلزم أن تَطَّلِعَ والدتك على كل صغيرة وكبيرة من ذلك.

فإذا كانت هذه هي نظرتَك فلن يكون لديك مشكلة -بإذن الله-.

اقتنع صاحبي بما قيل، وكان ذا سخاء، وطبعٍ كريم، وبرٍّ بوالديه، وصلةٍ لأرحامه.

وقال: لم تخطر أكثر هذه المعاني في بالي من قبل.

وبعد انقطاع عنه قابلته، وأخذنا بأطراف الأحاديث، وكان منها حديث عن المسألة التي نحن بصددها، فقال: الحمد لله، لقد أصبحت علاقتنا على خير ما يرام، وبدأنا نشعر جميعاً بالراحة، والطمأنينة أنا وإخوتي ووالدي، وزوجته.

فقلت له: وكيف كان ذلك؟ فقال: لقد كنت في السابق جافياً، وكنت لا أدخل منزل أبي الثاني إلا نادراً، ولا آتي بشيء معي؛ فلما كان أحد الأيام -وهو يوم جمعة- ذهبت إليهم، وسلمت عليهم، وحملت معي بعض الهدايا، ومن ضمنها شاة ذبحتها وقدمتها إليهم.

وصرت في كل جمعة آتي إليهم، وأسلم على زوجة أبي وإخوتي وأخواتي وأقول لهم: كل ما تحتاجونه فأخبروني، وصرت أرعاهم في مسألة ترفيههم، والخروج بهم من المنزل إلى استراحة لي، إلى غير ذلك مما هو داخل في هذا القبيل.

وبعد ذلك تغيرت نفوسهم نحوي؛ فصاروا يقابلونني بالبشر ، والترحاب ، والفرح ، حتى إنني في يوم من الأيام دخلت منزل أبي الثاني فاستقبلتني زوجة أبي؛ فلما سلمت عليها أكَبَّت على يدي تريد تقبيلها ، فنزعت يدي بسرعة ، وبادرت إلى تقبيل يدها ، وقلت : أنتِ صاحبة الحق ، وأنت والدتي الثانية ، وحقك كبير ، والتقصير كثير؛ فأجهشت بالبكاء ، وصارت تدعو لي دعاءً ألمس فيه الإخلاص والصدق؛ فزال عني ذلك التوتر ، وصار بيتنا يشع بالحب ، والسرور ، وكنت أراعي ألا تعلم والدتي بكل ما يحصل؛ حتى أحافظ على مشاعرها ، وإن كانت لا تمانع من ذلك.

وكان أحد إخوتي لأبي إذا رآني في السابق يشيح بوجهه عني؛ فصار يتلقاني ، وينظر إلي من بُعْدٍ ، ويستقبلني بطلاقة وفرح.

بل إن أثر ذلك عاد على والدي ، حيث هدأت نفسه ، وارتاح كثيراً مما يقلقه خصوصاً وأنه مصاب بعدد من الأمراض.

بل إن والدتي نالها نصيب من ذلك الخير ، حيث صار والدي يتحنن عليها أكثر من ذي قبل؛ إذ قلَّ عتابه ، وكثر حَدَبُه عليها وبره بها.

ولا يكاد يمر يوم أو بعض يوم إلا ويكون بيني وبين زوجة أبي أو أحد إخواني أو أخواتي لأبي اتصال ، أو مكالمة ، أو مشاورة.

وهكذا صار ذلك الصاحب يذكر لي ما يستجد من تلك العلاقة التي صارت تزيد مع مرور الأيام وثاقة.

فهذه الحادثة وأمثالها كثير جداً - تؤكد أن الحل -غالباً- بيد الإنسان نفسه متى أراد ذلك -بعد توفيق الله- وأن جزءاً كبيراً من المشكلة يكمن في الإنسان الذي يعرضها لا في غيره من أطرافها.

وأن المشكلة إذا جاءت من طرف واحد، وأمكن حلها من طريقة فإن ذلك من أنجع الطرق.

أما تشعيب الأمور، وتحذير السائل، وتحميل الطرف الآخر المسؤولية دون اللقاء به ـ فذلك قد لا يجدي نفعاً، ولا يطفئ لوعة، **وإذا أتتك معضلة فاجعل جوابها منها** ـكما قال الإمام أبو حنيفة رحمه الله ـ.

وإن من أعظم ما يعين على ذلك تكرم الإنسان، ومروءته، وإغضاؤه، وسعة نفسه، ونظرته للعواقب ـكما هي حال صاحبنا ـ.

أما إذا شحت نفس الإنسان، وقلت مروءته، وصار يفتح عينيه على كل صغيرة وكبيرة، وصارت نفسه أضيق من سم الخياط، وأصبحت نظرته قاصرة قريبة ـ فلن يزيده مرور الأيام إلا كدراً وضيقاً.

والد نبيل

قبل ما يزيد على عشرين سنة؛ كنت في زيارة لأحد العلماء، وهو في مرضه الذي مات فيه؛ حيث زرته في أحد المستشفيات، وكان أبناؤه من أهل العلم والفضل ومن أهل الدرجات العلمية العالية.

وكان أكبر أولئك في رئاسة أحد الأقسام الشرعية في إحدى الجامعات، وكان ذا فضل، وعلم، وجاه، وبرٍّ بوالده، وكان يرافق والده في المستشفى، ولا يخرج إلا وقت العمل ثم يعود إليه، فيمكث عنده أطول فترة ممكنة.

ولفت نظري في تلك الزيارة أن ذلك الابن جاء إلى والده ونحن عنده، وكان والده جالساً على الكرسي متحاملاً على نفسه؛ فلما شاهد ابنه مقبلاً نهض من كرسيه، وقام يستقبله، فسلم الابن على والده، وقبَّل رأسه، ثم جلسا؛ فتعجبت من ذلك الموقف؛ كيف يقوم الوالد لولده وهو في تلك الحال من الإعياء والمرض الذي مات من جرَّائه بعد مدة يسيرة؟

فقلت في نفسي: لعله غاب عنه فترة، أو لعله قدم من سفر، فسألت أحد الحاضرين، وقلت له: هل قدم فلان من سفر؟ قال: لا، بل كان قبل ساعتين عند والده، فزاد عجبي، وظل ذلك التساؤل قائماً في نفسي مدة تزيد على عشر سنين، ثم يسَّر الله زيارة لأبناء ذلك العالم، وبعد أن دار الحديث، وطال، وتشعَّب همست في أذن ذلك الابن الفاضل العالم، وقلت له: أتسمح لي بسؤال قد يكون غريباً عليك، وقد يكون فيه شيء من التطفل، ولك الخيار في الجواب من عدمه؟

فقال لي بأريحية وكرم: تفضَّل، وسَلْ ما بدا لك.

فذكرت له ذلك الموقف، وقلت: إنه في نفسي من ذلك الحين، فسكت برهة، وكادت تدمع عينه، ثم قال: هكذا يريد والدي، وقد حاولت مراراً ألا يفعل، فلما رأيت إصراره، وأن راحته في ذلك - تركته وشأنه.

فانظر إلى هذا النبل من ذلك الوالد العالم الذي بلغ به التقدير والاعتراف ذلك المبلغ.

ولا أظن أن الأمر يقف عند هذا الحد، بل ربما يكون هناك مواقف أخرى ربما تزيد على ذلك الموقف.

وما من ريب أن ذلك ممن يكسب الولد الثقة، والاعتبار، ويزيدهُ قرباً من والده، ورغبةً في مزيد بره.

من صور البر المعاصرة

صور البر، وقصص البررة كثيرة جداً، وكتب السالفين مليئة بذلك.

ولا ريب أن لتلك الصور والقصص أثرها البالغ في تحريك الهمم، وشحذ العزائم إلى البر، ومَزِيْدٍ منه.

ولكن قد يكون الحديث عن المعاصرين أوقع في النفوس؛ لأن من الناس من يتثاقل عن الاقتداء بالأوائل من الصحابة ومن بعدهم؛ بحجة أنهم أقرب إلى المنبع، وأقوى في الاتباع، وأن الزمن قد تغير، وأنه لا يمكن لتلك القمم أو القيم أن تعود، أو يُقترب منها.

ولكن إذا كان الحديث عن صور وقصص حاضرة ـ انتفى العذر، وصار ذلك أدعى لانبعاث الهمم، وحصول الاقتداء.

هذا وإن القصص في ذلك السياق كثيرة جداً، بل هي ـولله الحمدـ في بعض بلاد المسلمين هي الأصل.

وإن مما ارتسم في ذاكرتي من تلك القصص التي أعرفها في بلدنا الزلفي ما يلي:

١ـ قصة لرجل أعرفه تمام المعرفة فهو من الناس الأفاضل، وهو معلم، وله أولاد يحتاجون إلى رعايته، وأمه مريضة تحتاج إلى عناية ومراجعة مستمرة.

وأما أبوه فكبير في السن، وكان به بر، وفي أواخر سنوات عمر الأب أصيب بمرض؛ فأدخل المستشفى، ثم فقد الذاكرة قبل وفاته بما يزيد على سبع سنوات، فكان مقامه في المستشفى حتى مات.

وطيلة تلك الفترة كان ولده المذكور يرافقه مرافقة مستمرة بحيث لا يفارقه إلا وقت دوامه في التدريس، أو إذا ذهب إلى المنزل لقضاء بعض ما يحتاج إليه مما لا بد له منه.

أما باقي الوقت فيقضيه عند والده في المستشفى، يقلبه على سريره، ويراعيه في علاجه، وينقله من مكانه إذا كان سَيُنْقَلُ عنه، ويقوم على رعايته وجميع ما يحتاج إليه مع أن الوالد لا يشعر بشيء من ذلك البتة، ومع أن المستشفى يقوم بتلك الخدمة لو لم يكن عنده أحد.

ولقد استمر صاحبنا على تلك الحال مدة تزيد على سبع سنوات، وهو يقوم بذلك العمل بكل ارتياح، وسرور؛ فَصَاحَبَ والده طيلة تلك الفترة مصاحبة مستمرة، وانقطع عن الناس حتى توفي والده.

وكان الناس الذين يذهبون إلى زيارة المستشفى لا يفقدون ذلك الابن، بل إن إمام المسجد القريب من المستشفى يقول لي: إنني لم أفقده طيلة تلك الفترة إلا قليلاً خصوصاً في صلاة الفجر.

فمن يطيق تلك الحال إلا بارٌّ موفقٌ رائضٌ نفسه، غير متبع لهواه؟

ولما توفي ذلك الوالد قلت ونحن في المقبرة لذلك الولد البر: ذهب الظمأ، وابتلت العروق، وثبت الأجر -إن شاء الله-.

٢- وهذا رجل له والد كبير في السن قد جاوز المائة، وقد خَرِفَ، واختلط.

ولكن بقي معه شيء من حواسه كالسمع والبصر، كما بقي فيه شيء من نشاط يعينه على المشي.

ومن صور البر لذلك الابن أنه يلازم والده كثيراً، ولا يفارقه إلا لما لا بد له منه.

وكان يذهب به كل عصر إلى البر، فيوقد له النار، ويصنع له القهوة والشاي، ثم إذا قرب أذان المغرب عاد به إلى المنزل وهكذا استمر على ذلك إلى أن توفي والده قريباً؛ فهذه صورة من البر، والمصاحبة بالمعروف.

٣ـ وهذا شاب له والد كبير، وقد أصيب بجلطة، فصار لا يستطيع القيام بشأنه، فنذر ذلك الولد نفسه لخدمة والده، وانقطع عن منادمة الأحباب، فكان ينام عنده، ويعنى بجميع شأنه من نظافة بدنه، ومراعاة علاجه، ومراجعاته في المستشفى.

وكان يقوم بذلك بارتياح، وتَدَفُّع، وسرور، حتى إن إخوانه ـوهم بررة مثله لكنهم لم يبلغوا شأوه ـ تركوا منافسته، ولم يستطيعوا أن يعملوا عمله.

حتى إن أحدهم ـوهو معلم قديرـ يقول لي: «لقد نذرت مراراً أن أصنع صنيعه فلم أطق، فصرت أكفر عن نذوري؛ حتى عدلت عن ذلك».

بل ربما حصل جفاء من الوالد بسبب كِبَرِ سِنِّه، وكثرة أمراضه، واختلاطه أحياناً؛ فيكون من جراء ذلك بعضُ الغلظة، ورفع الصوت على الولد؛ فما يكون من الولد إلا مقابلة ذلك بالفرح، والسرور، وتَقَبُّل ذلك بروح مرحة.

وفي يوم من الأيام كان ذلك الولد ـكما يذكر لي أحد إخوانهـ في خدمة والده، فقال له والده: «يا ثور».

ولا يخفى ما في هذه الكلمة من الإهانة والإزعاج.

ولكن ذلك الولد كان يقدر ظرف والده؛ فلم يؤاخذه بذلك، بل قابل ذلك بابتسامة وفرح.

ولما سكت عن الوالد الغضبُ، وبدأ بمحادثة ابنه ـ نزع الابن غترته من على رأسه، وأقبل على والده، وقال: يا أبي تحسس رأسي، فقال الوالد: ولم ذلك؟ فقال الابن لعلك تجد قروناً؛ فأنت ناديتني بالثور؟!

فما كان من الوالد إلا أن ضحك كثيراً، وفرح بهذه المداعبة، ودعا لابنه.

فهذه صورة من صور كثيرة يقوم بها ذلك الابن البار.

وبعد سنوات سبع من ملازمتِه والدَه المريضَ مات الوالد، فصار ذلك الولد يرعى والدته، ويقوم بشؤونها.

وبعد أربع سنوات من موت الوالد لحق به الابن رحمه الله من جراء حادث سيارة.

وسبب موته أن علاج والدته انتهى، ويحتاج أن يأتي به من الرياض، وكان الوقت في مقتبل الليل، فقالت له والدته: لا تذهب الآن، ولكنه خشي أن تحتاج والدته الدواء، أو أن تتألم في تلك الليلة وليس لديها علاج؛ فما كان منه إلا أن ذهب إلى الرياض وأحضر العلاج، وفي طريق عودته إلى الزلفي حصل له حادث فمات في ذلك الحادث؛ فحزن عليه الناس حزناً شديداً، وكادت أمه أن تلحق به من فرط حزنها عليه لولا أن ربط الله على قلبها.

عشر أمثالها

السخاء خصلة إيمانية، وخلق عظيم فاضل، يقوم على الشعور بأن للمال قيمةً تستدعي عَدَمَ الإسراف في إنفاقه، وأن للحياة الفاضلة مطالبَ يُبْذَل في سبيلها المال غير مأسوف عليه؛ فهو بذل ما ينبغي في الوجه الذي ينبغي الإنفاق فيه.

والسخاء يقوم على الرحمة، وقلة الحرص على جمع المال حرصاً يعمي ويصم؛ فلا غرو -إذاً- أن يكون السخاء متصلاً بفضائل أخرى كالعفو، والحلم، والإنصاف، والتواضع.

فإذا اتصف المرء بالسخاء زكت نفسه، ولانت عريكته، وقاده سخاؤه إلى أن يترقى في المكارم، وأن يتنزه عن المساوئ والمعايب؛ فالسخي قريب من الله، قريب من الناس، قريب من كل خير وبر.

ولقد جرت سنة الله بأن السخي بحق يفوز بالحياة الطيبة، ولا تكون عاقبته إلا الرعاية من الله والكرامة؛ فالجزاء من جنس العمل.

ومما ينبغي أن يعلم أن السخاء ليس مقتصراً على بذل المال فحسب، بل إن مفهومه أوسع، وصوره أعم وأشمل، فيدخل فيه السخاء بالعلم، والجاه، والنصح، والعفو، والتغاضي، والبشاشة، ونحو ذلك.

وليس المقام ههنا مقام بسط لتلك الصور(١).

ثم إن الناس يتفاضلون بالسخاء على قدر هممهم، وإن من أرفع درجات السخاء أن يكون الرجل في حاجة مُلِحَّة إلى ما عنده، فيدع حاجته، ويصرف ما عنده في وجوه الخير، وذلك ما يسمى بالإيثار.

قال -تعالى- في معرض الثناء على الأنصار -رضي الله عنهم-: ﴿وَيُؤْثِرُونَ

---

(١) لقد يسر الله بيان ذلك بشيء من البسط في كتاب الهمة العالية للكاتب ص١٦٦-١٨٢.

عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ ﴾[الحشر: ٩].

وقال -تعالى- في معرض الثناء على عباده المؤمنين: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٨ – ٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ثم أخبر عنهم بإطعام الطعام على محبتهم له، وذلك يدل على نفاسته عندهم، وحاجتهم إليه.

وما كان كذلك فالنفوس به أشح، والقلوب به أعلق، واليد له أمسك؛ فإذا بذلوه في هذه الحال فهم لما سواه من حقوق العباد أبذل».

قال دعبل الخزاعي:

وليس الفتى المعطي على اليسر ... ولكنه المعطي على العسر واليسر

وقال بعض الشعراء:

ليس جود الفتيان من فضل مال ... إنما الجود للمقل المواسي

وإن مما يحضرني في هذا الشأن قصةً غريبةً سمعتها من صاحبها مراراً، وإليكموها معاشر القراء.

كان لنا جار اسمه عبدالله بن عبدالعزيز العبيدي، وقد أَدْرَكْتُه وهو كبير في السن، وقد توفي صباح السبت ١٤٢٢/٨/٢٥هـ عن عمر يزيد على التسعين.

وكان رحمه الله رجلاً فاضلاً حكيماً، حسن العشرة والحديث، عاش فترة من عمره في طلب الرزق في الكويت يعمل في البحر مع أصحاب له، ثم رجع إلى مسقط رأسه الزلفي.

وكان هذا الرجل ذا صلاح، وتَألُّه، ومُكْثٍ طويل في المسجد؛ فكان يمكث بعد صلاة العصر إلى المغرب أو العشاء، وإذا زاره أحد وحادثه انطلق معه بما يريد.

ولقد حدثني بحادثة حصلت له، وكان أول ما سمعتها منه عام ١٤١٠هـ ثم طلبت منه إعادتها مراراً.

وخلاصتها -كما يقول-: أنه في يوم من الأيام وقبل ما يزيد على أربعين سنة أُدْخِلَتِ الكهرباء إلى مدينة الزلفي، فذهبت إلى شركة الكهرباء، وقلت لهم: إنني أريد أن تصل الكهرباء إلى بيتي، فقالوا: إن قيمةَ إدخالِها مائتا ريال، فرجعت إلى منزلي، وأخذت المبلغ، وكان الوقت وقت صلاة الظهر، فقلت: أصلي، وبعد الصلاة أذهب إلى الشركة؛ لدفع المبلغ.

فلما فرغتُ من الصلاة التفتُّ وإذا بجانبي رجل كبير فقير أعرفه، وأعرف فقره ومسكنته، فقال لي: يا أبا سعود! والله إن الأولاد جياع في البيت، وإنهم لا يجدون ما يسد جوعتهم؛ فأشفقت عليه، وقلت في نفسي: أعطيه مائة، وأعطي الشركة المائة الأخرى، وباقي المبلغ الذي للشركة أعطيهم إياه فيما بعد، فأعطيته مائة، ففرح، ودعا لي، ثم خرجت من المسجد، وتحسست جيبي وإذا بي لا أجد المائة الأخرى، فأدركت أنني أعطيت الرجل المائتين على سبيل الخطأ، فصرت في حِيرة من أمري: هل أرجع إليه، وأقول: إنه لم يكن في نيتي إلا إعطاؤك مائة فحسب؛ فَرُدَّ لي مائة؟ أو أنصرف إلى بيتي، وأَدَعُ التقديم على شركة الكهرباء حتى تتيسر أموري؟

وبينما أنا في ذلك التردد قررت الرجوع إلى المنزل، وإيثار الرجل بالمائتين.

ولما رجعت إلى منزلي وجدت رجلاً في انتظاري عند باب المنزل، وصرت أنظر إليه، وأحاول التعرف عليه، فلما رآني مقبلاً تقدم إليَّ بحرارة، وشوق؛ فلما اقترب مني، وسمعت صوته عرفته؛ فهو صاحب لي أيامَ كنت أعمل في البحر في الكويت، وهو من التجار، ومن أهالي القصيم، ولم أرَه منذ خمس

وعشرين سنة؛ فعانقته، وفرحت به، وألححت عليه بدخول المنزل؛ لتناول الغداء، فقال: أنا في عجلة من أمري، فقد مررت في الزلفي، فخطرتَ في بالي، فسألتُ عنك، فدلوني على بيتك، وجئت للسلام عليك.

فحاولتُ معه؛ كي يتناول الغداء، فلم أفلح إلا بموافقته على تناول القهوة فحسب.

ولما همَّ بالانصراف ودَّعته، فأعطاني مظروفاً لم أنظر ما فيه إلا بعد أن غادر، فلما فتحته وجدت فيه هدية، وهي عبارة عن مبلغ ألفي ريال؛ ففرحت بها أيما فرح؛ لما وجدتُ من الخلف من الله، ثم سدَّدتُ قيمة دخول الكهرباء، وتمتعت بباقي المبلغ دهراً طويلاً؛ إذ كان يعدل في ذلك الزمن الشيء الكثير.

وبعد أن قص علي القصة قلت له: يا أبا سعود، الحمد لله أنك أعطيته المائتين، ولم تعطه مائة، ولو أعطيته مائة لربما لم يأتك إلا ألف.

فضحك، وقال: الحمد لله، وفضل الله واسع؛ فله الفضل والمنة.

ومما يحضرني - أيضاً - في هذا الشأن قصة غريبة حدثني فيها أحد رجال الأعمال الكرام في مكة المكرمة في ١٤٣٥/٨/٢٢هـ بحضور جمع من أهل الفضل والعلم؛ حيث كنا أضيافاً عليه في منزله، وكان الحديث يدور حول المروءات، فقال سأحدثكم بقصة حصلت لي قبل ما يزيد على ثلاثين سنة.

وخلاصتها أن رجلاً ضعيفاً فقيراً أتى إليَّ وقال: أريد مبلغ خمسة آلاف ريالٍ سلفةً؛ لشدة حاجتي، وقلة ذات يدي، فسلمتها إياه، وفي نيتي أنها عطية لا سلفة.

وبعدها بوقت قصير اتصل علي أحد الأصدقاء وقال لي: إن عند فلانٍ من الناس أرضاً، ويريد بيعها؛ فإن كانت بمليون فاشتر الأرض وخذ سعيها.

فقلت له: أنا لا أعرف صاحب الأرض ولا الأرض، وأنت تعرف الأرض

وصاحبها؛ فطالما أن الأمر كذلك فلماذا توسطني، وتفرض لي السعي!

فقال لي: اذهب إليه، ودع عنك الكلام، فاتصلت بصاحب الأرض، وقلت له: أنا فلان وأريدك بموضوع، فقال: تفضل، فذهبت إليه، وأخبرته بالأمر، ولم أدخل معه في كثرة تفاصيل.

فقال لي: الأرض تسام الآن بمليون ومائتي ألف ريال، ولم أجزم بَعْدُ على بيعها؛ فقلت له: أنت وشأنك، ثم ودعته منصرفاً.

ولما خرجت من عنده ناداني، وقال: لا أريد أن ترجع هكذا؛ فدخولك منزلي ليس بهين علي، فانا أريد بيع الأرض بمليون، فقلت: على بركة الله، ثم باعها على صاحبي، وأخذت السعي وهو مبلغ خمسين ألف ريال، وأدركت أنها ببركة المبلغ الذي أعطيته ذلك الفقير.

وبعد فترة جاءني ذلك الفقير، ونثر أمامي مجموعة كبيرة من النقود من فئة الريال، والخمسة، والعشرة، والخمسين، والمائة.

فقلت له: ما هذا؟ فقال: هذه الخمسة آلاف ريال التي استدنتها منك، وقد جمعتها من هنا وهنا حتى تيسرت.

فقلت له ممازحاً: لقد أعطيتك إياها جديدة؛ فكيف تردها هكذا؟ خذها لا أريدها.

فضاق صدره، وأخذها، فقلت له: هي لك، وخذ معها خمسة آلاف ريال، وبقي لك عندي عشرين ألف ريال لن أعطيك إياها.

فقال: وكيف ذلك؟ فقصصت عليه القصة، وقلت له: أنت السبب، ففرح، وتعجب، وانصرف شاكراً لله، مثنياً عليه.

فهذه القصة والتي قبلها ترينا شيئاً من فضل الله -عز وجل- وأن الجزاء من جنس العمل، بل إن ما عند الله خير وأبقى، وأن ما يدفع الله من السوء قد يكون أعظم مما يأتي من الخير؛ فالعوض من الله أنواع كثيرة لا يعلمها إلا هو -عز وجل- ولا يلزم أن يكون في الحال، أو أن يكون من جنس ما أُنْفق، فقد يبارك ولده، أو عمره، أو علمه، أو في ذلك كله.

وفاء طالب لمعلم

من صور الوفاءِ الوفاءُ للمعلمين في شتى المراحل، خصوصاً من كانت لهم أيادٍ بيضاء في سيرة الإنسان.

ومن أعظم ما سمعته في ذلك في عصرنا وفاءُ الشيخ الثري المحسن سليمان بن عبدالعزيز الراجحي ـ حفظه الله ـ لأستاذه علي بن شاكر رحمه الله حيث كان له مواقف في توجيه الشيخ سليمان وتقريبه وتحبيبه للدرس في بداية عمره، وقد أهدى لتلميذه في يوم من الأيام ريالاً، وذلك في حدود عام ١٣٥٩هـ فكان لذلك أبلغ الأثر في نفس الشيخ سليمان وسيرته؛ فما كان منه إلا أن وفى لأستاذه واعترف بجميله.

بل إنه منذ أن توفي عام ١٣٦٣هـ والشيخ سليمان يضحِّي له، ويدعو له، ويذكره بالخير، ويحجج عنه، بل وبنى له مساجد عديدة، بل ونصَّ عليه في وصيته.

يقول الشيخ سليمان: «ولا زلت إلى اليوم أرى أنني لم أُوْفِه حقَّه».

أين هذا الموقف النبيل ممن لا يرعون حق المعلم، ولا يفون له بأدنى درجات الوفاء من نحو السلام، والذكر الطيب وما جرى مجرى ذلك.

ولا أعني أي معلم ـوإن كان هذا هو الأصل عند كرام الناس الذين يرعون حقوق معلميهم ولو كانوا قاصرين في نظر الناسـ.

وإنما الشأن في المعلم المربي الحاني الذي يحدب على طلابه، ويبذل مستطاعه في تقديم النفع لهم بكافة صوره؛ فحق هذا أوجب، وبره أولى، كما أن عقوقه والتنكر له، وكنود فضله ـ أشد وقعاً، وألذع ميسماً.

وأذكر من هذا القبيل مما يجسد صورة الرقاعة، وقلة الوفاء للمعلم أن أحد الناس كان يطلب علماً شريفاً جداً عند أحد العلماء البارزين في ذلك العلم، وكان ذلك العالم كبيراً في علمه، وسنِّه، وكان يُكرم ذلك الطالب، ويحنو عليه، ويخصُّه بدرس في منزله، حتى أتقن عليه ذلك العلم.

ولكن ذلك الطالب لم يكن على درجة من الوفاء، بل كان بليدَ الإحساس، قليلَ المروءة.

ومن أمثلة ذلك أنه جاء في يوم من الأيام يريد أن يأخذ درساً عند شيخه المذكور في بيته، فلما وصل إليه وجده يحمل أغراضاً ينزلها من سيارته إلى بيته، وكان بعضها ثقيلاً؛ فلما رآى شيخه على تلك الحال لم يبادر إلى مساعدته، أو حمل الأغراض عنه.

وإنما نظر إليه، وهو في سيارته، ولم يكلِّف نفسه النزول منها، وقال: يبدو يا شيخ أنك مشغول؛ فلعلي آتيك في وقت آخر؛ فقال الشيخ: كما ترى!

فأيُّ أخلاقٍ هذه؟!

وفاء لصديق قديم

لعل من أجمل ما قيل في معنى الوفاء، وحسن العهد، وكرم العشيرة قول أبي تمام:

إن الكرام إذا ما أسهلوا ذكروا   من كان يألفهم في المنزل الخشن

ومعنى هذا البيت واضح، وهو أن كِرامَ الناسِ إذا تيسرت لهم الأمور، وأصابوا غنىً بعد عَيْلَةٍ، وعِزًّا بعد صَغَار، ومنعة بعد ضعف- لم يطش ذلك بهم في زهو، ولم يحملهم على الأشر والبطر، ولم يتعاظموا تيهاً وكبراً على من كانوا مجاورين أو معاشرين لهم أيامَ كانوا فقراء أذلة لا يُلتفتُ إليهم.

وإنما شيمتهم الوفاء، وتذكر الأخلاء، وإجلال من أحسن إليهم، والتواضع لمن دونهم، ولهذا قال في البيت الذي قبله:

أولى البرية طراً أن تُراعِيَهُ   عند السرور الذي واساك في الحزن

وهذان البيتان يشيران إلى خلق الوفاء الذي يعد من شُعَب الإيمان، وأجلِّ الأخلاق، وأرقاها، وأدلِّها على كرم الطبع.

هذا وإن من أروع صور الوفاء للأصدقاء، خصوصاً إخوان الصبا؛ فقد يكون للإنسان مجموعة ممن زاملوه في الدراسة أو الحي، ثم تَرْقَى به الحال إلى أن يصل إلى مراتب رفيعة في العلم، أو الجاه، أو التجارة؛ فإذا كان من ذوي النفوس الكريمة وفى لهؤلاء، وآثرهم بشيء من عطفه، أو جاهه، أو ماله، أو علمه، وأشعرهم بأنه باقٍ على العهد؛ حيث يذكرهم، ويحبهم.

ويَعْظم ذلك إذا كان هؤلاء الأصدقاء أقلَّ بكثير من ذلك الصاحب الذي نال ما نال؛ فإنهم يشعرون -مع وفائه لهم- أنه متواضع لم تغيره الأيام، ومن ذا الذي

يا عزّ لا يتغيّر؟.

ومما يحضرني في هذا الشأن أن أحد الناس ممن أعرفهم قد تعكّست أموره، ولم يستمر في تعليمه، وحصلت له احوال خاصة أخملت ذكره، ونالت نيلها منه، وقد تزوج في فترة من عمره، ورزق بذرية أكثرها بنات، والتحق بوظيفة راتبها زهيد.

وبعد أن كَبُرت أسرته ـ ضاق عليه العيش، وصارت طلبات الأولاد تكثر وهو لا يستطيع تلبية بعض الضروريات منها.

وكانت زوجته صابرة عاقلة، وتعرف أن له صديقاً قديماً نال ما نال من العلم والفضل والجاه، فاتصلت في أحد الأيام بذلك الصديق، فأخبرته بحال زوجها، وما يلقاه من الشدة، وضيق العيش؛ فما كان من ذلك الصديق الوفي إلا أن ذهب من فوره، وقدم مساعدة لصديقه، وتلطف معه بالحديث، وصار يذكره بأيام الصبا، ومراتع الطفولة، ويشعره بأن مكانته محفوظة، وكان لا يناديه إلا باسم الصديق أو الزميل؛ فارتاح ذلك الصديق البائس لهذا الحديث الحاني، وذلك الموقف النبيل من صديقه القديم، واغرورقت عيناه بالدموع.

ثم استمر التواصل بينهما، وصار ذلك الصديق الوفي يتفقد حال صديقه بين الفينة والأخرى.

بل لقد استحيا الصديق البائس من كثرة إنفاق صديقه الوفي؛ فصار لا يطلب منه شيئاً، فصارت زوجته تخبر صديقه الأول بحاله، فانتهى الأمر بذلك الصاحب الوفي إلى أن يأخذ رقم حساب أهل صديقه، وصار يرسل إليهم ما يحتاجون إليه دون علمه؛ كي يحفظ عن صديقه القديم ماء حيائه.

وبعد ذلك صار الصديق البائس يستحي من كثرة إفضال صاحبه، وصار لا يستطيع مقابلته، وإذا قابله في مكانٍ ما صار يحتضنه ولا يكاد يُبِيْن بكلمة واحدة، وإنما يجعل لغة العيون تنوب عن إبانة الألسن.

ولقد جمع ذلك الموقف النبيلُ التواضع، والكرم، والوفاء، وتفريج الكرب.

وكل ذلك معدود في قبيل المروءات.

وجه طلق

طلاقة الوجه، وإشراقة المحيا، ولين الجانب ـ معدودة من ضروب المروءة التي يحمد صاحبها عليها.

ويحضرني في هذا الشأن رجلٌ تجاوز الخمسين من عمره، أعرفه منذ سنوات طويلة تزيد على الثلاثين سنة.

هذا الرجل ليس ذا علم، ولا مال، ولا شهرة، ولا يتميز بأي شيء عن عامة الناس.

وقد رأيت قلوب أقاربه، وزملائه، وأصدقائه، ومعارفه ـ عموماً ـ تنجذب بطواعيتها إليه؛ فإذا جالسوه أَنِسوا به، وإذا ذكروه ابتهجت قلوبهم لذكره، ولا تكاد تجد له مبغضاً؛ فما السر في ذلك؟

السر أن الله ـ عز وجل ـ أكرمه بشيء مما ذكر آنفاً؛ فلا تراه في مجلس، أو طريق، أو مناسبة إلا وهو يبتسم، ويَتَطَلَّق.

وبيني وبين ذلك الرجل قرابة، وعلاقة قديمة، وصلة مستمرة.

وأحياناً يشكو لي بعض تقصيره، ويتألم من حاله؛ فيدور بيننا أحاديث في ذلك الفلك.

ومن ضمن ذلك أنني أقول له: كلنا ذلك الرجل، ونحتاج جميعاً إلى مجاهدة، ولكن اشْكُرِ الله أن منَّ عليك بطلاقة وجهك، وإشراقة محياك، وتبسمك في وجوه الناس، واحتسب ما تقوم به من ذلك؛ فإنه من قبيل الحسناتِ، والحسناتُ يُذْهِبْنَ السيئات.

وكان يستغرب من كونه يؤجر على ذلك العمل الذي لم يخطر بباله؛ لأنه لا يتكلفه، بل يسير فيه على سجيته، ويقول: كيف يكون ذلك؟

فقلت له: إنك بهذا العمل تكسب الأجر والثواب من طرق كثيرة، منها ما يلي:

١- أن البشاشة والبشر من المعروف الذي ترفع به الدرجات، وتحط به السيئات: قال النبي ﷺ: «**لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجهٍ طَلْق**» رواه مسلم.

٢- أن تبسمك في وجه أخيك صدقة: قال النبي ﷺ: «**تبسمك في وجه أخيك صدقة**» أخرجه الترمذي، وقال: «هذا حديث حسن غريب».

٣- أنه اقتداء بالنبي ﷺ: قال جرير بن عبدالله البجلي رضي الله عنه: «**ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسم في وجهي**» (رواه البخاري ومسلم).

فانظر إلى أثر تبسم النبي ﷺ في وجه جرير رضي الله عنه وكيف كان ذلك من قبيل ما يُحدِّث، ويفاخر به؟

٤- أن ذلك سبب لانشراح الصدور: قال ابن عقيل رحمه الله: «البشر مؤنس للعقول، ومن دواعي القبول، والعبوس ضده».

فإذا لقيت الناس بوجهك الطلق شرحت صدورهم، وأزلت عنهم بعضَ همومِهم، وربما انبعثوا بسبب ذلك إلى مزيد من الجد والعمل، وربما استمر أثر ذلك إلى داخل بيوتهم.

وكل ذلك داخل في قبيل المعروف، والصدقات.

وهب أنك قَطَّبْتَ جبينك، وقابلت الناس بعبوس وكُلُوحٍ؛ فما النتيجة؟

النتيجة عكس ذلك تماماً؛ فتكون بذلك كسبت الإثم، أو في الأقل خسرت البر.

٥ـ أن ذلك التبسم سبب لكسب الصداقات، ووأد العداوات، وحسن السمعة، والذكر الطيب.

قيل للعتابي: «إنك تلقى الناس كلَّهم بالبشر!».

قال: «دفع ضغينة بأيسر مؤونة، واكتساب إخوان بأيسر مبذول».

وقال محمد بن حازم:

وما اكتسب المحامد حامدوها ... بمثل البشر والوجه الطليق

وقال أعرابي: «البشر سحر، والهدية سحر، والمساعدة سحر».

وقال آخر:

ولاقِ ببشرٍ من لقيت تكن له ... صديقاً وإن امسى مغباً على حقد

وكان عمر بن عبدالعزيز رحمه الله يتمثل بهذه الأبيات:

الق بالبشر من لقيت من النا ... س جميعاً ولاقهم بالطلاقة

تَجْنِ منهم به جناءَ ثمارٍ ... طيباً طَعْمُهُ لذيذَ المذاقة

ودَعِ التيهَ والعبوس عن النا ... س فإن العبوس رأس الحماقة

كلما شئت أن تعاديَ عادَيـ ... ـت صديقاً وقد تعز الصداقة

وقال أبو جعفر المنصور: «إن أحببت أن يكثر عليك الثناء الجميل بغير نائل ـ فالقهم ببشر حسن».

فلما سمع ذلك فرح، واستبشر، وصار لسان حاله يقول: الحمد لله الذي جبلني على هذه الخصال المحمودة شرعاً، وعقلاً، وعرفاً.

فهذا شيء مما أوحت به سيرة ذلك الصديق المبتسم، ذي الوجه الطلق، الذي امْتَلك به شعبةً من شعب المروءة، ألا وهي البشر والطلاقة.

أخلاق بائع

يحدثني أحد أصحاب المحلات التجارية فيقول: ها أنا قد جاوزت الخمسين من عمري، وكنت كزاً غليظاً، سيّيء الخلق، صعب المراس.

وهكذا كانت سيرتي مع أصحابي، وأقاربي، حتى قيَّض الله لي قبل سنوات فَتْحَ محلٍ تجاري، فصرت أحرص على البيع، والكسب، فألزمني ذلك أن أُغيِّر طباعي، فأخذت بِسُنَّةِ المداراة، ولزمت خُلُقَ الصبر؛ حتى لا أخسر زبائني.

ولقد كان بعضهم يأتي، فَيَقْلِبُ المحلَّ رأساً على عقب، ولو طاوعت طبيعتي لربما لم أكتف بالنهر والزجر، بل ربما مددت يدي إليه بالضرب.

ولكن كنت ألزم الهدوء، وأجاهد نفسي على التَّحَلُّم.

واستفدت كذلك من أخلاق الزبائن؛ فبعضهم سمح كريم حيي لطيف، وبعضهم كزٌّ بخيلٌ شحيحٌ صفيقٌ؛ فكانت حاجتي ماسة لمراعاة الأوائل، ومداراة الآخرين.

وبعد فترة تَغَيَّر كثير من طباعي، وأفدت من البيع والشراء أخلاقاً ما كنت أحلم بها، وصار أثر ذلك عائداً إلى تعاملي مع أقاربي، وأهل بيتي.

وأدركت أن الإنسان قادرٌ -بإذن الله- على تغيير طباعه، والنهوض بنفسه، فزادت بذلك مسراتي، وخفَّت آلامي وأحزاني.

ولا ريب أنك -أيها القارئ الكريم- قد أدركتَ العبرة من هذه الحادثة؛ وكيف كان حرص صاحبنا على مصلحته دافعاً لأن يرتقي بخلقه، ويُغَيِّر طباعه، ويتسم ببعض مقومات المروءة.

فسيرة هذا البائع ترشد إلى أن المروءة تكتسب، وأن تغيير الطباع وارد

ممكن، وتشير إلى أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وتدل على أنه لا يكفي مجرد العلم بالخطأ أو التقصير، أو الرغبة في التغيير.

وإنما لا بد - مع ذلك كله - من الإرادة الجازمة، والسعي الحثيث لمغالبة النفس، والسير بها إلى الأمثل.

طلاق مثالي

كثير من الناس يتهاون بشأن الطلاق؛ فتراه يرسل لسانه بكلمة الطلاق دونما نظر في العواقب.

وكثيراً ما يقع الطلاق لأسباب تافهة، فيقوّض سعادة قائمة، ويبدد شمل أسرة متماسكة.

ومن هذه الأسباب نزوة غضب رعناء تستبد بالمرء، فتعمي بصره، وتشل تفكيره، وتطيش بعقله، وتقوده إلى الطلاق.

وكثيراَ ما يندم الزوج إذا طلق؛ فبعد أن كان آمناً في سربه، ترفرف عليه السعادة، والطمأنينة، إذا به يقلب كفيه، ويقرع سنه ندماً على تطليقه زوجتَه.

ومن هنا تتنغص حياته، ويتكدر عيشه؛ فالطلاق حلُّ عقدةٍ، وبتُّ حبال، وتمزيُق شملٍ، وزيالُ خليط، و انفضاض سامر؛ ففيه كل هذه المركبات الإضافية التي استعملها العرب، وجرت في آدابهم مجرى الأمثال، من التياع وحرارة، وحسرة، ومرارة مع ما يصحبه ذلك من الحقد، والبغض، والتألم، والتظلم ـ كما يقول البشير الإبراهيمي ـ.

فلهذه الملابسات التي هي مقتضى الفطر السليمة، والطباع الرقيقة شرع الإسلام الطلاق مقيداً بقيود فطرية، وقيود شرعية؛ فاعتمد في تنفيذ الطلاق ـبعد فهم المراد ـ على إيمان المؤمن، وشرع له من المخفّضات ما يهوِّن وقعه، كالتمتيع، ومدِّ الأمل بالمراجعة، وتوسيع العصمة إلى الثلاث؛ حتى تمكن الفيئة إلى العشرة.

وكما أن هناك من يفرِّط فيستعجل في شأن الطلاق فهناك من يفرط من جهة أخرى، فيمنع الطلاق، ولا يُقْدِمُ عليه مهما كان الوضع، ومهما توافرت الدواعي له.

والحق قوام بين ذلك؛ فلا الاستعجال في شأن الطلاق بالأمر المحمود، ولا تركه إذا توافرت أسبابه بالمحمود كذلك.

إن الطلاق في الإسلام لَمن أعظم الأدلة على أن هذا الدين من لدن حكيم عليم؛ فالله -عز وجل- إنما شرع الطلاق لحكمة بالغة، ومصلحة راجحة ظاهرة؛ فلماذا نمنعه إذا تحققت دواعيه وتوافرت أسبابه؛ فيكون ذلك المنع سبباً في عذاب شخصين وشقائهما؟.

فلماذا هذا العذاب؟ ولمصلحة مَنْ ذلك الشقاء؟ وإلى متى يظل البيت جحيماً ملهباً كلما خبت ناره زادها الخلاف سعيراً؟.

إن الزواج نعمة عظمى، وقد امتنّ الله به على عباده في غير موضع من كتابه؛ فالزواج عقد بين قلبين، ومزج بين روحين، وفي الأخير تقريب بين جسمين؛ فإذا تراخت عراه بين القلبين ذهب السكون والمودة والرحمة.

ومن هنا يُسعى في محاولة الجمع، والإصلاح، ورأب الصدع.

فإذا زاغت الفطرة من أحد الزوجين عن محورها، أو طغت الغرائز الحيوانية على الفضائل الإنسانية في أحدهما أو كليهما، وباءت محاولات الإصلاح بالإخفاق - فالله أرحم من أن يكلف عباده تحمل هذا النوع من العذاب النفسي، وهذا الجمع بين قلبين لم يأتلفا، وطبعين لم يتَّحدا، وروحين تناكرا، ولم يتعارفا.

ثم إن من الأزواج من لا يكتفي بالتسريح الجميل إذا لم يتوافق مع زوجته،

فتراه إذا فارقها بطلاق أو خلع يُسرفُ في ذمها ، ويسرف في ذكر مساوئها ، وربما رماها بما هي براء منه ، وربما نفَّر منها من أراد الزواج بها.

وربما ذمها عند أولادها منه ، وحثهم على عقوقها وهجرانها.

وهذا من الظلم المبين ، والعدوان العظيم؛ ذلك أن الشارع أمر الزوج إذا فارق زوجته أن يُسَرِّحَها سراحاً جميلاً ، وأن يسرحها بإحسان ، فيستر ما وقف عليه من عيوب زوجته ، ويمسك عما لا يجوز ذكره.

ثم إن ملك الله واسع ، وفضله عظيم؛ فله عنها متسع ، ولها عنه متسع.

ثم إن رغبات الناس تتباين؛ فما لا يناسب الزوج الأول قد يناسب غيره ، وما يعد عيباً ربما كان في نظر الآخرين مزية.

ولا ريب أن مراعاة المشاعر في الطلاق إذا استدعته الحال ـ مطلب شرعي ، وأدب اجتماعي ، وضرب من ضروب المروءة الصادقة التي ترعى العهد ، ولا تنسى الفضل.

هذا وأعرف قصة طلاق حصلت لأحد الذين أعرفهم تماماً ، ولو أنني لم أقف على تلك القصة لربما ظننت أنها ضرب من الخيال.

هذا الرجل مكث مع زوجته سنوات؛ ورزق منها بأولاد ، وكان هو من مدينة ، وزوجته من مدينة أخرى.

وصار بينهما شيء من الخلاف بسبب اختلاف طبيعتهما؛ فطبيعته تميل إلى البرود ، وطبيعتها تميل إلى الحرارة .

وفي يوم من الأيام جلس معها ، وقال لها : يا أم فلان لا ينبغي أن تستمر حالنا هكذا في نزاع ، وشد وجذب ، فإما أن نتفق؛ أو نفترق ، إما إمساك بمعروف ، أو تسريح بإحسان؛ فقالت : دعني أفكر في أمري ، وأستخير ربي ، وآمل منك أن

تقوم بذلك.

وبعد مدة قالت له: أرى أن المناسب لي ولك أن نفترق؛ فلعل الله يغني كلٌّ واحد منا من سعته، فقال لها: إذاً نفكر على بركة الله في طلاقنا.

وفي يوم من الأيام ذهب بها إلى بيت أهلها، وتوجَّه إلى المحكمة، وأثبت الطلاق، ورجع إليهم، وأخبرهم بذلك، وتناول الغداء معهم، ثم ودعهم.

يقول صاحبنا: فرجعت إلى بيتي، وبكيت حتى أفرغت أكثر ما عندي؛ حزناً على تلك العشرة الطويلة، ثم اتصلت بمطلقتي وأمِّها؛ لأن والدها متوفى، وقلت لها: الأولاد بيننا إن أردتم أن يكونون عندي فبهما ونعمت، وإن أردتم أن يكونون عندكم فالأمر كذلك.

فقالتا: بل نريد أن يكونوا عندنا، فقلت: إذاً أخبروني عن النفقة التي تناسب حتى أرسلها بين الفينة والأخرى، فاتفقنا على مبلغ معين، وصرت أرسله لهم، وأتابع أولادي، ويزورونني بين الفينة والأخرى، وأزورهم أنا كذلك، وأتواصل مع والدتهم في شأنهم.

وبعد مدة تزوُجتُ ورزقتُ بأولاد، وتزَّوجَتْ مطلقتي، ورزقت بأولاد، واستمرت الصلة بيننا بشأن الأولاد، وإذا ذهبتُ إلى مدينتهم وحدي أو بصحبة أحد زملائي ـ أزور جدة أولادي، وأتناول عندهم الغداء، أو العشاء، وأسلم على أولادي؛ ثم أرجع إلى بلدي.

وإلى يومنا هذا وأنا سعيد بزواجي الأخير، وهي كذلك، وأولادنا يسيرون في دراستهم وشتى أمورهم، وكأنهم بين والديهم.

فقلت له: ألم يحدث بينكما خلاف طيلة تلك الفترة؟ قال: لا، بل أنا شاكر

لهم حسن تربيتهم لأولادي ، ويكفي ما حصل من طلاق بيننا؛ فلا داعي أن نزيده سعيراً بالقيل والقال ، وبكل ما ينغص عيشنا ، ويؤذي أولادنا.

هذه قصة صاحبنا الذي أعرفه تمام المعرفة ، وأعرف حاله إلى يومنا هذا.

وهي تعطينا درساً في حسن التعامل مع الخلاف ، بل مع صورة من أعظم صور الخلاف ألا وهي الطلاق؛ فمع بالغ الأسف أن الطلاق -غالباً- إذا حصل لم يكتف كلُّ طرف من الأطراف بلوعة الفراق ، وآثاره ، بل تراهم يُطْعِمون نارَ الخلاف جَزْلَ الحطبِ ، فكلما خبت زادوها سعيراً.

والنتيجة أنهم يخسرون جميعاً خسارة فادحة تَطَال صحتهم ، وأوقاتهم ، وربما أموالهم ، وأديانهم.

ولو أنهم امتثلوا أمر ربهم -جل وعلا- بالإمساك بالمعروف ، أو التسريح بالإحسان لكان ذلك خيراً وأحسن تأويلاً.

الاعتراف للمحسن

الاعتراف للمحسن معدود في قبيل الخلق العظيم، ومن جملة أمهات الفضائل؛ ولا غرو في ذلك إذ هو أثر من آثار العدل، والجود، والتواضع، والإيثار، وحسن المعاملة، والوفاء.

وكم ضاعت من حقوق بسبب جحود الجاحدين، ونكران الظالمين.

وكم من مشروعاتٍ وئِدت، ومواهبَ عُطِّلت، وفرصٍ ضاعت بسبب ذلك.

ثم إنك تعرف أخلاق الإنسان -من عدل، وصبر، وعفة، وسخاوة نفس- من خلال اعترافه لغيره بالإحسان.

وما عبر الإنسان عن فضل نفسه ... بمثل اعتقاد الفضل في كل فاضل

وليس من الإنصاف أن يدفع الفتى ... يدَ النقص عنه بانتقاص الأفاضل

ومما يؤسف عليه ما يحدث في كثير من الدوائر والقطاعات؛ حيث يقوم بعض المنتسبين لتلك الجهات بأعمال كثيرة مضاعفة، ثم تنسبُ تلك النجاحاتُ والإنجازاتُ إلى غيره؛ فيدَّعيها - بكل صفاقة - مَنْ لم يقم بأي شيء منها، أو قام بعمل يسير جداً لا ينبغي أن يذكر.

يحدثني أحدُ الأصدقاءِ الأعزاءِ القدامى أنه يعمل في قطاع كبير، وأن تحت يدِه كثيراً من الموظفين، وكان ذلك الصاحب أميناً كريماً ذا همة يحب تشجيع من تحت يده، ويثني عليهم أمام مسؤوليهم، ويكافؤهم بقدر ما يستطيع.

وكانوا يحبونه، ويتشرفون بالعمل تحت يده، ويتدفَّعون لإسعاده، وإنجاز الأعمال كما يحب.

يقول ذلك الصاحب: «إن من أعظم ما يسعدني أن يكون العمل كما ينبغي، وأن ينال العاملون نَصِيبَهم من جراء ذلك العمل الذي أخلصوا فيه، فينالوا مكافأة، أو ترقية، أو - في الأقل - يَحْظَون بكلمة ثناء صادقة، أو ابتسامة رضاً طاهرة.

وأنا أحاول جهدي أن أقوم بما أستطيع من ذلك.

ولكن الذي يحصل كثيراً أنه يأتي الرئيس المسؤول الأول عن ذلك القطاع، فيرى الأمور فوق ما يتصور من جهة الإنجاز،والإتقان، فيعبر عن شكره، وفرحه، وتقديره لذلك العمل.

ولكنَّ المسؤولَ المباشرَ الذي هو أعلى منا، ودون المسؤول الأول - رجلٌ صغير النفس ضيِّق العطن لا يحب أن يُمْدَح أحدٌ عنده، ولا تطاوعه نفسه على الاعتراف للمحسنين أو شكرهم، فضلاً عن مكافأتهم، أو نسبة النجاح لهم.

فإذا شرع الرئيس بالثناء والشكر والدعاء - توقعنا من ذلك المسؤول المباشر أن يشير إلينا أمام الرئيس، أو يطلب لنا زيادة مكافأة أو شكر؛ من باب إنصافنا، ولأجل أن يزدادَ إقبالُنا على العمل قوةً إلى قوة.

ولكن الذي يحصل خلاف ذلك؛ فتراه ينسب النجاح لنفسه وحده، ويتظاهر بشيء من التواضع المقيت الذي يُشعِر من خلاله الرئيسَ مِن طَرْفٍ خفيٍّ أنه هو الذي قام بأعباء ذلك العمل، مع أنه لم يكلف نفسه أيَّ جهد، وبهذا يسرق نجاح الآخرين، وينسبه إلى نفسه.

وإذا خلا بنا أتحفنا بابتسامة صفراء لا تسمن ولا تغني من جوع» اهـ.

ولا ريب أن ذلك الصنيع سقوط، وأثرة قبيحة.

وماذا سيضر ذلك الإنسان لو تواضع قليلاً، ونسب الفضل إلى أهله،

واستحضر أن الرافع الخافض هو الله؟

ولئن زال من قلوب الناس نسبةُ عمل إليه وهو لم يَعْمَلْهُ- فَسَيَحُلُّ مَحلَّهُ توقيرٌ ومحبةٌ له، ودعاءٌ وإعجابٌ به؛ بسبب عدله، ونزاهته، وتكرمه، وحذره من سرقة جهود الآخرين.

أين هذا من قصة شخص يحدثني بها أحد أكابر أساتذة الجامعات العريقة، حيث يقول: «كان في مدينتنا رجلٌ كبير في سنه، وعقله، وعلمه، وخلقه، وجاهه، وكان وراء كثير من الأعمال الخيرية دعماً، أو تأسيساً، أو إشرافاً.

وفي يوم من الأيام أرادوا تكريمه، فقلت في نفسي: لا بد لي من حضور تلك المناسبة التي أقيمت لرجل يستحق التكريم، ولا يختلف اثنان من عارفي فضله على استحقاقه للتكريم.

وكان من دوافع حضوري حرصي على استماع الكلمة التي سيلقيها في ذلك الحفل.

ولما أقيم الحفل، وأثني على صاحبنا بما يستحق، وجاء دوره في الكلمة توقع الحاضرون أن يتكلم عن إنجازاته الحقيقية، ومعاناته من جراء ما قام به.

ولو تكلم بما توقعوا لما لامه أحدٌ على ذلك.

لكن الذي حصل أن الرجل نَحَى في الحديث مَنْحَىً آخر؛ حيث قال: إن الإخوة القائمين على الأعمال الخيرية أرادوا تكريم العمل الخيري ممثلاً في شخص، فرأوني أَسَنَّهم؛ فقدموني لذلك، وإلا فأنا واحد منهم، بل إنهم يفوقونني في البذل والعمل، ثم شرع في الكلام عن العمل الخيري عموماً دون أن يتكلم عن نفسه أو جهوده، بل راح يثني على زملائه، ويشيد بأعمالهم.

فخرجت وقلبي مفعم بالحب، والإكبار، والدعاء لذلك الرجل» .اهـ

فقارن بين هذا الموقف وموقف صاحبنا الذي سرق إنجاز من تحت يده.

وبالجملة فإن أبواب السرقة كثيرة، والمقام لا يتسع لها، وإنما هي إشارات، والسعيد من أدى الأمانات إلى أهلها، وسلم من هَضْم الناس، وبَخْسِهم أشياءهم.

وأعظم واعظٍ لذلك استحضارُ العرض على مَنْ لا تخفى عليه خافية يوم تبلى السرائر؛ فما للإنسان من قوة ولا ناصر.

نزاهة محقق

أعرف حادثة وقفت على تفاصيلها، تحمل في طياتها عبراً ومعانيَ رائعة.

هذه الحادثة وقعت قريباً، وتتلخص في أن أحد الأفاضل من أهل العلم قام بتحقيق كتاب في دائرة تخصصه، وعني به، وأخرجه للناس، وأهداه لبعض أحبته؛ فكان أن وقف أحدهم على بعض الملاحظات في التحقيق المذكور، وتردد في إبدائها لصاحبه؛ لما بينهما من الود، ولخشيته من أن تتكدر النفوس من جراء ذلك ـ كما هي العادة عند بعض من توجه لهم الملاحظات ـ.

وبعد تردُّدٍ قرر أن يخبر صاحبه عن تلك الملاحظات، فاتصل به عبر الهاتف، وشكره على الهدية، واستأذنه بإبداء ما رآه حول الكتاب بعد مقدمة لطيفة؛ فما كان من ذلك المحقق إلا أن رحَّب بذلك، بل وفرح به، واستمع إلى جميع تلك الملاحظات دون أن يعترض على واحدة منهن.

وبعد أن أكملها صاحبه شكره، ودعا له، ووعده بالأخذ بها جميعاً.

وبعد أيام بعث برسائل عبر الهاتف الجوال، وواصل من خلالها شكره، ودعاءه لصاحبه، وأخبره بأنه أخذ بجميع الملاحظات، وعدّلها للطبعة القادمة.

ولم يكتف ذلك المحقق الفاضل بما سبق، بل أخبر بذلك الصنيع صاحباً لهما من أهل العلم، وأبان له أنه فَرِحٌ مسرورٌ بتلك الملاحظات، وأنه يدعو لمن أبداها، بل أخبر أنه قام ببعض الصدقات، وأهدى ثوابها له.

وقد نقل ذلك الصاحب مشاعر المحقق إلى الذي أبدى الملاحظات.

ولا أقول هذا الكلام تحليلاً، أو تزيُّداً، بل لقد وقفت على ذلك كله، وأعرف أطرافَ الموضوعِ الثلاثةَ: المحقق، ومن أبدى الملاحظات، وصاحبهما.

فهذه صورة رائعة تُبيْن عن زكاء، ومروءة كامنة، وترينا أن النصيحة المقرونة بالحب، تؤتي أكلها، وأن الذين يتقبلون النصح موجودون غير معدومين كما قد يُتَصوَّر، وأن من أعظم ما يصد عن النصح وقبوله شوبَ النيات، والتربصَ بأصحاب الزلات، والحرصَ على تتبع العثرات.

ومن أسبابه - أيضاً - تكبر بعض من يصدر منهم أعمال عن قبول النصح، واعتقادهم أن أعمالهم صواب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وقد ذكرتني هذه الحادثة بحال أسلافنا الذين كانوا يُبْدون الملاحظات بصورة لائقة، ويتقبلون ما يوجَّه إليهم بنفوس مطمئنة؛ فالأكابر من الناس لا يأنفون من الاعتراف بالخطأ إذا أخطأوا، ولا يَتَلَبَّثونَ في الرجوع إلى الحق ولو عظمت مناصبهم، وعلت أقدارُهم.

والراسخون في الفضيلة لا يبالون أن يكون رجوعهم عن الخطأ أمام من خالفهم وحده، أو بمحضر جمع كبير.

وقد ينقل التاريخُ شذراتٍ من حوادث المنصفين لمن خالفهم في أمر، أو المعترفين لبعض خصومهم بفضيلة، فتهتز في نفوس قرائها عاطفة احترامٍ لمن أقر بالخطأ، أو اعترف لخصمه بخصلة حمد.

وربما كان إكبارهم لمن أقر بالخطأ فوق إكبارهم لمن خالفه في الرأي فأصاب.

وربما كان إكبارهم لمن شهد لخصمه بمكرمة فوق إكبارهم للشخص المشهود له بتلك المكرمة.

وسبب هذا الإكبار عظمةُ الإنصاف، وعزةُ من يأخذ بها في كل حال.

ولو أخذت هذه الخصلة حظها من النفوس لعمَّ الائتلاف، ولقلَّ الاختلاف.

عن الربيع بن سليمان قال: «سمعت الشافعيَّ يقول: ما أوردت الحقَّ والحجة على أحد فقبلها مني إلا هِبْتُهُ، واعتقدت مودته.

ولا كابرني على الحق أحدٌ، ودافع الحجة إلاَّ سقط من عيني».

ونقرأ في تاريخ العلامة محمد بن عبد السلام أن ابن الصباغ اعترض عليه في أربع عشرة مسألة، فلم يدافع عن واحدة منها، بل أقر بالخطأ فيها جميعاً.

فهذه خاطرة أوحت بها نزاهة ذلك المحقق الفاضل النبيل.

لُمَعٌ من سخاء ابن باز

لا يكاد يعلم في زماننا هذا أسخى ولا أجود ولا أكرم من سماحة شيخنا الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله ، وذلك في وجوه السخاء ، وصوره المتعددة؛ فسماحته كريم في خلقه ، جواد في صفحه وعفوه ، سخي بعلمه ، وجاهه ، ووقته وراحته ، ونومه ، متلاف لماله في وجوه الخير المتعددة؛ من بذل ، وصدقات ، وإقراض ينتهي غالباً بالمسامحة.

والذي بيده ليس له ، ولو سئل ما سئل؛ فربما سئل مالاً فأعطاه ، وربما أتته الهدية في المجلس فسأله أحد الحاضرين إياها فأعطاها إياه ، بل كثيراً ما يبتدر من بجانبه بالهدية التي تقدم لسماحته ، بل ربما سُئِل عباءته التي يلسبها ، فأعطاها من سأله إياها.

والحديث عن كرمه وسخائه وجوده يبدأ ولا ينتهي ، وحسب الحديث في الأسطر التالية أن يكون عن صورة من هذه الصور ، ألا وهي كرم ضيافته ، وعنايته البالغة بمن يَقْدمُون ضيوفاً عليه؛ فإليك طَرَفاً ومعالم من هذا القبيل :

١ ـ كان رحمه الله مجبولاً على حب الضيوف ، والرغبة في استضافتهم منذ صغره.

وقد ذكر الشيخ عبدالمحسن بن سعد الباز ـ أحد أقارب سماحة الشيخ ، ويكبر سماحته بعشر سنوات ـ ذكر أن سماحة الشيخ ، وهو يطلب العلم عند المشايخ في مقتبل عمره ـ كان إذا سلم عليه أحد دعاه إلى غدائه أو عشائه ، ولا يحتقر ما يضعه للناس ، ويجعل الله في طعامه خيراً كثيراً.

أَلِفَ المُروَّةَ مُذ نَشا فكأنه ... سُقي اللبانَ بها صبيًّا مُرْضعا

٢ ـ كان يوصي بشراء أحسن ما في السوق من الفاكهة ، والتمر ،

والخضار، وسائر الأطعمة التي تقدم لضيوفه.

٣ـ وكان يلح إلحاحاً شديداً على القادمين إليه أن يَحُلُّوا ضيوفاً عنده على الغداء، والعشاء، والمبيت، ولو طالت مدة إقامتهم.

ولا يكاد القادم إليه يتخلص منه إلا بعد لأْي وجهد، مع أن إلحاحه كان بذوق، ولطف، وبُعْدٍ عن الإحراج؛ فيشعر القادم بمكانته عند الشيخ دون أن يقع في حرجٍ.

وإذا اعتذر القادم قبل الشيخ عذره، وودعه بكل بشاشة وسماحة وود.

٤ـ وكان يُرَغِّبُ القادمين إليه بأن يتواصلوا معه في الزيارة، فيذكِّرهم بفضل الزيارة، والمحبة في الله، ويسوق لهم الآثار الواردة في ذلك؛ مما يبعثهم إلى مزيد من الزيارة؛ لأن بعضهم لا يرغب في الإثقال على سماحة الشيخ وإضاعة وقته؛ فإذا سمع منه ذلك انبعث إلى مزيد من الزيارات.

٥ـ وكان يحرص أشد الحرص على المواعيد التي يضربها لضيوفه؛ فكان يعطي من يعملون معه خبراً بذلك، ويقول: سيقدم علينا اليوم فلان من الناس، أو فلان من أهل العلم، ويتقدم للمجيء قبل ضيفه؛ ليكون في استقباله، وخصوصاً من لهم مكانة في العلم، كسماحة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله فإن سماحة الشيخ ابن باز يفرح بمجيئه فرحاً عظيماً، ويأتي من المكتب إلى البيت قبل مجيء الشيخ ابن عثيمين بربع ساعة تقريباً، بل كان يوصي ـ كما يقول مدير مكتبه الشيخ محمد الموسى رحمه الله ـ بأن يُزاد في أنواع الطعام المعد، ويقول: ضعوا مع الغداء أو العشاء كريمة ـ وهي أكلة حلوة معروفة ـ.

٦ـ كان لا يتلذذ بالأكل وحده، بل لا يجد أنسه إلا بالأكل مع الضيوف والفقراء، ولهذا لا يكاد يتناول غداءه أو عشاءه إلا ومعه أناس على المائدة.

٧ـ وكان يلاطف ضيوفه، بمحاسن كلامه، ولطيف ترحيبه.

ومن كلماته المعتادة لضيوفه قوله: حياكم الله، حيا الله الجميع، من الألفة ترك الكلفة.

٨ـ وكان لا يقوم من المائدة حتى يسأل عن ضيوفه: هل قاموا؟ فإذا قيل له قاموا قام؛ كيلا يعجلهم بقيامه قبلهم، وإذا قام قبلهم قال: كل براحته، لا تستعجلوا.

٩ـ وكان لا يتبرم من كثرة الضيوف، ولا تضيق نفسه إذا فاجأه الزائرون وهو لم يحسب حسابهم، بل يرحب بهم، ويلاطفهم، ويبارِكُ اللهُ في الطعام الذي يقدم، ولو لم يؤخذ حساب القادمين، وربما أمر بأن يحضر زيادة في الطعام.

كريم إذا ضاق اللئام فإنه   يضيق الفضاء الرحب في صدره الرحب

والقصص في هذا السياق لا تكاد تحصى.

١٠ـ وكان من عادته أنه ينيب من يقوم على إكرام الضيوف، والقيام بشأنهم إذا كان لديه موعد محاضرة، أو مناسبة، أو وليمة.

وكان إذا جاء من موعده سأل عن الضيوف وعن راحتهم، وعما قدم إليهم.

وإذا لاحظ تقصيراً في حقهم تكدر وغضب.

١١ـ وكان دائماً يسأل فيقول: عسى ما نقص عليهم شيء، وإن قيل له: لا، فرح وتهلل، وحمد الله.

١٢ـ وكان رحمه الله يوجه العاملين عنده بالأدب مع الضيوف واحترامهم.

وفي أحد الأيام تكلم أحد رفاق الشيخ على أحد الضيوف قائلا: أنت ما عندك أدب في الأكل، ولا تُحسن الأكل، فرد عليه الضيف بقوله: أنا مسلم، ولم آتِ إليك وإنما أنا ضيف على سماحة الشيخ، فسمع سماحته ذلك،

وقال: ما الذي حصل؟ قال الضيف: إن هذا يقول لي كذا وكذا، فغضب الشيخ غضباً شديداً وقال: هؤلاء ضيوفي أتوا إلي ولا أرضى بإهانتهم، والذي يأتي منكم يجلس مثل غيره، وإلا لا يجلس معنا.

ومرة سال بعض موظفي مكتب منزله: لماذا ما جاءنا ضيوف؟ أين الناس؟ تفقدوا الباب الخارجي، فقيل له: الباب مفتوح، فقال: أخبروا الجيران يتغدون معنا.

وكذا يقول للمرافقين له: تغدوا معنا، أو تعشوا معنا أنتم وأهلكم وأولادكم، ويكرر ذلك.

١٣ـ وإذا قدم الضيوف من بعيد، ثم استضافهم وأكرمهم، وأرادوا توديعه ـ ألح عليهم بأن يمكثوا، وأن يتناولوا وجبة أخرى، وأن يبيتوا عنده؛ فلا يتخلصوا منه إلا بعد أن يتأكد من أنهم مسافرون أو مرتبطون.

بل إذا قالوا: إنهم مرتبطون، قال: ألا يمكن أن تتخلصوا من ارتباطكم ؟ ألا تهاتفون صاحب الارتباط، وتعتذروا منه ؟

١٤ـ وإذا كان مُجْهداً، أو لم يكن له رغبة في الطعام ـ جلس مع ضيوفه؛ إيناساً لهم، وتطييباً لنفوسهم؛ خصوصاً إذا رغبوا في ذلك، ولم يعذروه.

١٥ـ وكان يفرح بالقادم إليه ولو لم يعرفه من قبل، خصوصاً إذا قدم من بعيد، أو لمصلحة عامة.

١٦ـ وكان يرفع من شأن ضيوفه، ويعلي من منزلتهم، ولو لم يكونوا كباراً، ولو لم تكن لهم مكانة اجتماعية.

وأذكر أنه قبل سنتين من وفاته كان في الطائف، وزاره بعض الشباب من الزلفي،

وكانوا آنذاك طلاباً في كلية الشريعة ، ومن ضمنهم أخي عبدالله ، وبعض هؤلاء لم ير الشيخ قبل ذلك ، وكان غاية ما يتمنون أن يروا سماحته في زيارتهم تلك.

فلما دخلوا مجلسه بعد المغرب حياهم ، وأدناهم ، وألح عليهم بالعشاء ، فقالوا: نحن لا نريد سوى رؤياك والسلام عليك.

فقال: لابد من العشاء ، فوافقوا.

وكان في مجلسه بعد المغرب يلتفت إليهم ، ويباسطهم ، ويسألهم عن المشايخ في الزلفي.

يقول الشيخ محمد الموسى رحمه الله : «فلما صلينا العشاء دخلت مع سماحته في المختصر؛ لأقرأ عليه بعض الأوراق والمعاملات ريثما يتم إعداد العشاء.

وكان الشباب الزائرون في المجلس ينتظرون.

فلما شرعت بالقراءة على سماحته رأيته منصرفاً عني ، ثم قال: أبا موسى ! فقلت: نعم ، فقال: تركنا الضيوف ، فقلت: عفا الله عنك ، هؤلاء أبناؤك ، وقد جلسوا معك بعد المغرب ، وسيجلسون معك بعد قليل على العشاء؛ فماذا يريدون أكثر من ذلك ؟ ائذن لي بإكمال ما شرعنا بقراءته.

ثم شرعت بالقراءة ، فقال: أبا موسى ، ضيوفنا؟ فقلت: لا بأس عليهم ، فقال: في ذمتك يا أبا موسى؟ فقلت: لن يلحق ذمتي شيء إن شاء الله ، فقال: لِنَدَعِ القراءةَ الآن ، هَيّا إلى المجلس ، فتركنا القراءة ، وجلس معهم يباسطهم ، ويجيب عن أسئلتهم حتى حان وقت العَشَاء.

فلما تناولوا طعام العشاء مع سماحته استأذنوا؛ فقال: ما نسمح لكم ، لابد أن تبيتوا عندنا ، فقالوا: عندنا مكان سنبيت فيه ، فألح عليهم ، وقال: نحجز لكم في الفندق ، إن أردتم؛ لأنه رحمه الله ظن أنهم مستحيون من المبيت عنده في منزله ، فقالوا: جزاك الله خير الجزاء ، وغفر لك ، وجعلك ذخراً للإسلام والمسلمين ، لقد أعطيتنا

من وقتك ومجلسك فوق ما نستحق، وفوق ما تصورنا؛ فودعهم، وحمَّلهم السلام لمن أمامهم».

١٧ـ ومن لطائف كرمه أنه إذا كان في السيارة، وقدم عليه قادم أخذ يتحفز، ويتحرك، ويدعو القادم للركوب معه حتى ولو كان المكان ضيقاً، لكن سماحته يريه أنه محب لصحبته.

وربما أمر أحد السائقين التابعين للرئاسة ليوصل مَنْ يَقْدمُ عليه، أو أن يأخذ سيارة للأجرة؛ لتنْقُل من يأتون إليه إذا كانوا كثيرين.

١٨ـ كان منزل أسرة سماحة الشيخ في الرياض لا يتسع لكثرة الضيوف القادمين إليه، وكثيراً ما يأتيه أناس بأُسَرهم إما من المدينة أو غيرها؛ إما طلباً لشفاعة أو مساعدة، أو نحو ذلك، فكانوا يسكنون عند سماحة الشيخ في المنزل.

وإذا خرج سماحة الشيخ في الصباح أخذ معه أوراقهم وطلباتهم، ويقول لِكُتَّابه: اقرؤا ما فيها.

١٩ـ لدى سماحة الشيخ مكان مُهَيَّأٌ للضيوف، وهذا المكان في بدروم بيت الرياض.

وربما اجتمع فيه عشرة أشخاص، أو خمسة عشر، وربما جلسوا أياماً، وربما شهوراً !!

وفي يوم من الأيام قيل لسماحة الشيخ: إن فلاناً ساكنٌ عندنا منذ وقت طويل، فقال: لو استغنى عنكم ما جلس عندكم!

٢٠ـ هناك عدد من الناس يرتادون منزل سماحته وقت الغداء بصورة مستمرة.

٢١ـ وكان يجود لمحبيه وزائريه بما يستطيع ولو قلَّ.

وأذكر أنني ذهبت للعمرة بصحبة والدتي ـ رحمة الله عليها ـ والأهل وبعض الإخوة؛ فمررنا بالطائف ـ وكان سماحة الشيخ موجوداً به في ذلك الوقت ـ فعرجنا على منزل سماحة الشيخ قبيل المغرب، فخرج يتهادى مع من يقوده إلى المسجد، فقابلته، وسلمت عليه، فألح بالعشاء، والمبيت، والإفطار غداً، والغداء، وقال: بعد ذلك لكم أن تذهبوا، فصرت أعتذر منه، وهو يلح، وقال: عندنا مكان خاص بالأهل؛ فقلت له: سنذهب إلى مكة، وبعد العمرة والاستقرار في مكة نَقْدُم عليكم مرة أخرى.

فقال: يعني ما فيه فائدة؟ فقلت: الأمر كما ترون، فأخرج من جيبه مسواكاً جديداً وقال: اللهم اهدنا فيمن هديت، إذاً خذ هذا المسواك؛ فأخذته، والسرور يملأ قلبي بتلك النفس الرضية، وتلك الهدية التي تعدل في معناها كل هدية[1].

---

١ ـ هذا نزر يسير، وقطرات في بحر جوده وسماحته وسخائه.

وأما باقي مروءاته وأخباره ـ فلا يكاد يحويها أسفار، وقد يسر الله لي جمع شيء من ذلك في كتاب: (جوانب من سيرة الإمام عبدالعزيز بن باز) رواية الشيخ محمد الموسى وإعداد كاتب هذه السطور، ويقع في ٦٢٨ صفحة.

وكتاب: (الرسائل المتبادلة بين الشيخ ابن باز والعلماء) إعداد الشيخ محمد الموسى وكاتب هذه السطور، ويقع فيما يزيد على ٨٠٠ صفحة.

ربح البيع

أعرف شخصاً متوسط الحال، أو أقل من ذلك، وهو ذو عيال، وليس له مصدر رزق غير دُكانٍ متواضع يبيع فيه الأشياء اليسيرة في البناء وغيره، وكان له قطعة أرض على شارعين، وهي -تقريباً- أَنْفَسُ ما يملك.

وكانت تلك الأرض في حي جديد لا يوجد فيه مسجد.

وكانت رغبة أهل ذلك الحي في تلك الأرض؛ لتكون مكان المسجد؛ لأن موقعها ملائم جداً.

ولكنهم كانوا مترددين في مخاطبة صاحبها؛ خوفاً من أن يرفض بيعها.

ولَمّا كُلِّم في ذلك الشأن - وكان قصارى ما يطمح إليه أهل الحي أن يوافق على مبدأ البيع بِغَضِّ النظر عن القيمة - فاجأهم بقوله: موعدكم صباح غدٍ كتابة العدل؛ فلما بدأ دوام اليوم التالي ذهبوا إلى كتابة العدل وإذا هو في انتظارهم، فقالوا: ماذا تريد ثمناً لتلك الأرض؟ قال: لا أريد شيئاً، إنما أريد أن أفرغها دون مقابل؛ كي يُبنى عليها المسجد، وقد بادرتُ؛ خشيةً من أن يحول دون ذلك حائل!!

فما كان من الحاضرين إلا أن دُهشوا، واستولت عليهم الحيرة من ذلك الموقف النبيل الذي يدل على إيمان، واحتساب، ويقين، وإيثار لما عند الله.

وبعد ذلك بُني المسجد، وصار المصلون يتقاطرون عليه، ثم أصبح فيما بعد مسجداً جامعاً.

أين هذا المحسن ـ مع قلة ذات يده ـ من أناس لا يكادون يتنازلون عن أقل القليل، بل ترى نفوسهم تدنو إلى درك سحيق من الشح والبخل مع أنهم يملكون الأموال الطائلة؛ فصاروا سُبَّةً، ومثلاً في سفاسف الأمور ومرذولها.

ومما يحضر في هذا القبيل قَصَصٌ كثيرة، ومنها: ما حدثني به شاب مكافح يسعى إلى إعفاف نفسه عن سؤال الناس، فيقول: إنه اشترى لأجل ذلك سيارة شحن، وصار يحمل عليها البضائع، ويوصلها من مكان إلى مكان، ومن بلد إلى بلد مقابل مبالغ يتفق عليها مع أصحاب البضائع.

وفي يوم من الأيام طلب منه شخص غني أن يُوصل أغراضه إلى بلد يزيد بُعْدُهُ على ستمائة كيلو متر، واتفقا على سعر معين؛ فلما أوصل الشاب تلك الأغراض بدأ صاحبه بمماكسته، والإلحاح عليه بأن يتنازل عن بعض المبلغ مع أنه مبلغ زهيد يأخذه كل الذين هم على تلك الشاكلة، بل يأخذون أكثر منه.

حينها قال له الشاب: ألم أتفق معك على المبلغ المذكور؟ قال له صاحبه الغني: بلى، ولكن آمل أن تتسامح في بعض المبلغ، فقال له الشاب: أنا فقير مسكين لا دخل لدي، وأعول أسرة، وأنت رجل غني لا يضيرك هذا المبلغ، فقال الغني: ولو كان الأمر كذلك؛ فأنا آمل منك تلبية رغبتي.

ولَّما ضاق ذلك الشاب بتلك المماكسة عزَّت نفسه عليه، وقال: إذا كان الأمر كذلك فأنا متنازل عن جميع المبلغ، وأودعك الآن؛ لكي أرجع إلى بلدي وأهلي، فقال له الغني: لا، ليس الأمر كما تقول، وإنما أطمح أن أصل إلى حل سواء بيني وبينك، فأقسم الشاب ألا يأخذ ريالاً واحداً، فانصرف، وصار الغني يناديه، وهو لا يلتفت إليه، ورجع دون أن يأخذ شيئاً؛ فانظر إلى هذا اللؤم، والبخل، والشَّرَه، وصِغَرِ النَّفْس.

وأعرف رجلاً من ذوي الأموال الطائلة ولكنه بخيل جداً، وذات يوم دخل محلاً صغيراً تُباع فيه بعض السلع الرخيصة، وصاحبه رجل فقير، فطلب ذلك الرجل الموسر نوعاً من مرطبات اليدين والبدن، فأحضره له صاحب المحل، فسأل المشتري عن قيمة السلعة، فقال صاحب المحل: قيمتها خمسة عشر ريالاً، فصار المشتري الغني يُلِحُّ ويتوسل إلى صاحب المحل أن يبيعه إياه باثني عشر ريالاً، فقال له صاحب المحل: هذا هو مكسبنا، فقال له المشتري: ولو كان؛ فاستحيا صاحب المحل، ووافق على مضض.

وكان أحد الناس حاضراً في ذلك الوقت، وآلمه ذلك الموقف كثيراً، وهمَّ بأن يقول لذلك الغني: أما تستحي؟ وهمَّ بأن يدفع عنه الثمن، ولكن خشي من سوء العاقبة؛ فآثر الصمت.

ويحدثني أحد أكابر القضاة قبل سنوات أنه ينظر في قضية تافهة جداً، خلاصتها أن أحد الأشخاص رفع دعوى على صاحب له، مفادها أن صاحبه اشترى منه خيمة وما يتبعها من أشياء، فلما فحصها المشتري وجد من ضمنها أدوات سباكة يسيرة تخص الخيمة، ووجد أن أحد أنابيب الماء سقط منه صنبور لا يزيد سعره على ثلاثة ريالات، فرفع على صاحبه دعوى، مفادُها أن في البيع غشاً وغرراً!!

يقول القاضي: «فحاولت ثنيه عن شكواه، ولكنه أصر، فلما جاء الخصم حاولتُ فيه وقلت له: هلاَّ أعطيتَ صاحبك ما يريد، أو أذنت لي بأن أعطيه ما يريد؛ لتنتهي هذه القضية! فقال لي: دع حُكْم الشرع يأخذ مجراه، فتذكرت المثل العربي: إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً.

وهكذا سارت القضية، وأشغلتنا وهي بتلك التفاهة والحقارة» اهـ.

فانظر إلى تفاوت الهمم، واختلاف النفوس كبراً وصغراً، وتأمل كيف تصعد تارة، وتهبط أخرى.

إن العلو في مثل ما مضى ذِكْرُه مما يحبه الله، ويرضاه، وإن السفول لَمِما يكرهه الله، وينهى عنه.

وإن فئاماً من الناس لا يتصور مثل ذلك، ولا يحتسب أجره إذا كان عالياً، ولا يخشى وزره إذا كان سافلاً، وإنما تمر منه على عين عمياء، وأذن صماء.

عفوٌ وإحسان

أعرف رجلاً قُتل أحد أبنائه في مشاجرة، وحُكم على الجاني بالقصاص؛ فصارت الوجاهات، والأموال الطائلة تُعرض على والد المجني عليه دون جدوى.

ولما حُكِم له، وأمسك حقه بيده، وقرُب وقتُ التنفيذ ـ استخار الله ـعز وجل- واستشار أقاربه في العفو، وبيَّن لهم أنه راغب فيه، فأعانوه على الخير، وقالوا أنت وشأنك.

ولما أيس أهل الجاني، وتوقفت محاولات الإصلاح ـ تَوجَّه ذلك الوالد إلى القاضي الذي حكم في القضية، وسجل تنازله الكامل دون قيد ولا شرط.

ولم يكتف بذلك، بل اتصل فور خروجه من المحكمة بوالدي الجاني، وهاتفهما، وبشرهما بعفوه عن ابنهما؛ فكادوا يقضون نحبهم من شدة الفرح.

وصار ذلك العفوُ حديثَ الذين دخلوا في موضوع الصلح، والذين سمعوا بالقضية، وتابعوا أحداثها؛ فكانوا ما بين مصدق ومكذب لذلك الموقف العالي النبيل الذي لا يكاد يتكرر وجوده؛ حيث لم يكتف ذلك الوالد الكريم الفاضل بأن يكون من العافين عن الناس، بل دخل في قبيل المحسنين؛ إذ أحسن في عفوه غاية الإحسان، ورفض كل ما قُدم، واحتسب أجره على الله، وقال: لو حصل أن أخفيه عن نفسي لفعلت، فكان بذلك مضربَ مثلٍ، وموضعَ قدوةٍ، ومحلَّ ثناءٍ ودعاءٍ؛ حيث توالت عليه وفود الناس شاكرة له، مثنية عليه، داعية له، فجزاه الله خير الجزاء، ورحمه ورحم ولده رحمة واسعة؛ وجعل ذلك الصنيع سبباً لرفعة درجاته، وإقالة عثراته، إنه سميع قريب.

وأعرف رجلاً حصل على أحد أبنائه حادث اصطدام مروري، فتوفي ذلك الابن من جراء الحادث.

فلما بلغ الخبر والده استرجع، وأوصى بقية أبنائه بمتابعة الموضوع؛ لأن الحادث وقع في مدينة أخرى.

أما الوالد فاشتغل بصاحب السيارة الأخرى؛ حيث صار يتابع حالته الصحية، ويسأل عنه، فلما أُخْبر أنه سليم فرح بذلك.

وفي اليوم التالي للحادث حضر أقارب صاحب السيارة الأخرى من منطقة بعيدة جداً؛ لتعزية أهل الميت، وحضور الجنازة، فاستقبلهم والد الميت، وأكرم وفادتهم منذ أن قدموا، وهيَّأ لهم مكاناً خاصاً، وصار يتردد عليهم هو وأولاده.

ولما صُلي على الجنازة، وتناول القادمون طعام الغداء، وصاروا ينتظرون بقية أكابرهم؛ لكي يعزوا والد الميت، ويفاوضوه بشأن الموضوع - دخل عليهم في مقر إقامتهم، وقال: ماذا تريدون أيها القوم؟ نحن نرغب في إكرامكم، ومزيد مكثكم، ولكننا نخشى أن نقطعكم عن أعمالكم.

فقالوا: نحن ننتظر وفداً من أكابرنا؛ لكي يفاوضوك في الأمر، فأقسم عليهم ألا يأتي أحد، وأنه لو كان الأمر بيده لما رغب في أن يأتي من أتى، وأبلغهم بأن الأمر قد انتهى، وأنه قد تنازل عن كافة حقوقه المتعلقة به؛ فما كان من القادمين إلا أن أجهشوا بالبكاء فرحاً، وإعجاباً، وإكباراً لذلك الرجل، وشهامته العالية.

قصة الجنيهات

هذه قصة مشهورة عندنا في الزلفي، ويتداولها الناس منذ حدوثها قبل ما يزيد على خمس وسبعين سنة إلى يومنا هذا، وقد سمعتها مراراً، وآخر ما سمعتها في يوم ١٤٣٥/١/١٥هـ حيث سمعتها من ابن صاحب القصة مباشرة.

وفارس هذه القصة هو دخيل بن محمد بن عبدالعزيز العبيِّد العصيمي من أهالي الزلفي، وهو رجل مشهور بالجود، وإكرام الضيوف في وقت كان الناس يشكون من قلة ذات اليد، بل يشكون من الفاقة وشظف العيش؛ إذ قد يمر بالواحد منهم يوم أو أكثر وهو لم يجد ما يسد به جوعة أولاده.

والذي يعنينا في الشأن هو ما حصل لدخيل بن محمد العبيِّد رحمه الله في هذه القصة، حيث حدثني ابنه عبدالعزيز بذلك فقال: «حدثني والدي مراراً عن قصة الجنيهات -كما يسميها- وخلاصتها أن والدي كان في نخله في ضاحية سمنان، فقدم عليه ضيوف؛ فضاق بهم ذرعاً؛ حيث يريد إكرامهم، ولكن لم يكن عنده ما يقدمه لهم؛ فحاول أن يلتمس عند جيرانه ولو صاع برٍّ، غير أنه لم يجد شيئاً؛ فانطلق إلى السوق الجنوبي، وتلفت يمنة ويسرة فلم يجد من يبيعه؛ لأنهم يعلمون أنه ليس معه مال، وإنما يريد أن يشتري دَيْناً، فذهب إلى السوق الشمالي، فحاول أكثر من مرة، فلم يجد من يبيعه، فذهب إلى رجل يقال (ابن حمد)[1] فعرض عليه حاله، فقال: لن أردك، وباعه صاع برٍّ واحد فقط.

(١) لا أدري من هذا الشخص، وقد سألت عنه عبدالعزيز العبيد فقال: لا أعرفه، ولكن هكذا سمعت من والدي، وسألت عنه غيره فقالوا: هو ابن حمد السياري.

يقول والدي: فوضعته في بشتي، وخرجت من السوق، راجعاً إلى منزلي، وإذا بامرأة تتبعني، وتقول: (والذي يدفع عنك البلاء لي يومان أو ثلاثة لا أذوق إلا الماء أنا وأولادي، وهم أطفال صغار؛ فإن كان معك شيء فاعطني إياه، وسدَّ حاجتنا، الله يسد حاجتك في الدنيا والآخرة).

فأشفقت عليها وقلت لها: اقتربي، ثم أخرجت الصاع، وأعطيتها جميع ما فيه.

وقلت في نفسي: لو أرجع الآن إلى ابن حمد فلن يعطيني شيئا، فسأذهب ـ إذاً ـ إلى غيره.

وبينما أنا في طريقي قرب مسجد الذييب جنوبي السوق الشمالي، وكنت أفكر فيمن سأذهب إليه ـ إذا بي أرى أمامي شيئاً يلمع، فاقتربت منه وإذا به جُنَيْه، ثم رأيت بعد ذلك بجانبه ستة جنيهات؛ فأخذتها وطرت بها فرحاً، ووضعتها في جيبي، وذهبت إلى صاحبي ابن حمد، وقلت له: أعطني صاعين، فقال: يا رجل لا تكن طماعاً، أعطيتك صاعاً ويكفيك؛ فقلت له بلهجة الواثق: أعطني صاعين، وهذه قيمة الأول والثاني، فقال: الآن أهلاً وسهلاً.

فأخذت الصاعين، ثم اشتريت قهوة، وذهبت إلى بائع اللحم، فاشتريت منه ما يكفي الأضياف؛ فكان مقدار ما صرفته أربعة جنيهات، وبقي معي ثلاثة؛ فخرجت من السوق مسروراً بتفريج كربة تلك المرأة، وبكوني حصلت على ما أكرم به أضيافي؛ فوصلت إلى منزلي، ووضعت ما أتيت به عند أهلي، وأعددنا الطعام، وأكرمنا الأضياف، وسررنا جميعاً بذلك.

ولما كان من الغد ذهبت إلى السوق لأسأل عن صاحب الجنيهات، فاستخبرت أهل السوق هل سمعتم بأحد ضاع منه جنيهات؟

فقالوا: نعم هذه لمبارك الصعيب، وقد ضاعت منه؛ حيث شرد بعير له، فلحق به والجنيهات في جيبه، ولم يَرُدَّ الجمل إلا في البطين ـ مكان يبعد قليلاً عن

البلد - وبعد أن أمسك ببعيره، تحسس جيبه، فلم يجد الجنيهات، فرجع على إثره؛ ولكنه لم يجد جنيهاته.

فذهبت إلى مبارك الصعيب، وأعلمته بالخبر، وقلت له: لقد صرفت أربعة جنيهات للضيوف، وبقي معي ثلاثة منها، فَخُذْهَا الآن، وأما الأربعة التي صرفتها فسآتيك بها - إن شاء الله - في أقرب وقت، ففرح ابن صعيب بذلك، وأقسم عليَّ ألا يرجعن إلي، فحلفت أن يرجعن إليه، وقلت له: يكفي تفريج كربتي وإكرام أضيافي، وهكذا صار يقسم ألا ترجع وأنا أقسم أن ترجع؛ فوصل بنا الحال أن ترافعنا إلى الأمير - أمير الزلفي آنذاك عبداللطيف الحمين رحمه الله المتوفى عام ١٣٦١هـ.

فقال لنا مازحاً: أنت يا دخيل مجنون، وأنت يا مبارك مجنون، كلكم مجانين ما فيكم بركة، ولكن خذ يا مبارك الثلاثة جنيهات، وأما الأربعة فقد صُرِفت من أجل الضيوف والحمد لله، فتراضينا بهذا الحكم».

فهذا ملخص تلك القصة التي سمعتها مراراً، وذكرها لي عبدالعزيز ابن دخيل العبيِّد مراراً، ولما كتبتها راجعته فيها أكثر من مرة.

والجدير بالذكر أن دخيل العبيد عاش حتى طعن في السن؛ إذ لم يفارق الحياة إلا عام ١٤٠٩هـ.

في عون أخيه

في إحدى ليالي العشر من رمضان لعام ١٤٣٣هـ ألقيت درساً في جامع الملك عبدالعزيز في الزلفي بين ركعات صلاة القيام، وكان الدرس يدور حول الصدقة، وفضلها، وإخلاف الله لأهلها، وذِكْرِ قَصَصٍ من هذا القبيل.

وبعد نهاية الصلاة قابلت أحد الإخوة الأصدقاء المعلمين الكرام، من ذوي المروءة والديانة، والبر بوالده، والصلة لأرحامه، والوفاء لأصدقائه، ومعارفه، والتذكر لأمه التي توفيت منذ فترة طويلة.

وأعرف عن هذا الصديق -أيضاً- أنه من المكافحين ومن ذوي النفوس الكريمة الأبية المحسنة مع قلة ذات يده؛ حيث إن والده كبير سِنٍّ، وقليل ذات اليد، وله إخوة من أبيه يصغرونه في السن، ويحتاجون إلى رعايته.

يقول لي ذلك الصديق بعدما سمع الكلمة الآنفة الذكر: سأذكر لك قصة حصلت لي عام ١٤١٥هـ وذلك أول ما عينت معلماً، حيث كان تعييني في الرياض العاصمة.

وكنت في أول فصل دراسي أكابد قلة ذات اليد، ووالدي فقيرٌ جداً، وأنا أستحي من زملائي، ومن أصدقائي الذين يكبرونني في السن ممن يستضيفونني في منازلهم؛ لذا قد يمر عليَّ اليوم ولا أتناول إلا وجبة واحدة.

وكان أحد الأصدقاء يستضيفني كثيراً في منزله، وفي يوم من الأيام تناولت الغداء عنده، ثم خرجت أريد الذهاب إلى أهلي في الزلفي، ولم يكن معي إلا خمسون ريالاً فقط؛ فقد كان عهدي بصرافة النقود قبل أيام؛ حيث سحبت منها آخر ما بقي من رصيدي وهو مائة ريال، فصرفت منها خمسين، وبقي معي خمسون؛ لتكون قيمة الوقود الذي يوصلني إلى الزلفي.

وبينما أنا سائر في أحد طرقات الرياض دخلت في شارع ضيق، فلقيني رجل من إحدى الجاليات الإفريقية، ويظهر عليه الفاقة والمسكنة، فأشار إلي أنْ قف، فَوَقَفْتُ أمامه، فقال لي: آمل منك أن تتكرم وتشتري حليباً لطفلي؛ فوالله إنه في البيت يتضوَّر جوعاً، وليس لدي ما أشتري به حليباً؛ فلا أريد منك إلا أن تذهب إلى هذا المحل وتشتري لي الحليب.

فلمست الصدق من كلمات ذلك الرجل؛ فأخرجت الخمسين التي كانت معي، وأعطيتها إياه دون تفكير أو رَوِيَّة؛ فانصرف فرحاً شاكراً وداعياً.

وبعد ذلك تذكرت أنه ليس معي شيء، حتى قيمة الوقود الذي يوصلني إلى أهلي، فَوَجَمْتُ في مكاني، وصرت في حيرة من أمري، ولم يكن معي جوال في ذلك الوقت؛ لأتصل بأحد كي ينقذني من ذلك الموقف.

ولما رفعت رأسي وجدت صرافة النقود قريبة مني؛ فذهبت إليها هكذا؛ تسلية لنفسي، وتعبيراً عن قلة حيلتي، وإلا فأنا أعلم أن آخر مرة زرتها قبل أيام؛ حين أخذت آخر مبلغ بقي في حسابي.

ولكن المفاجأة حصلت حين وضعت بطاقتي في الصراف؛ لكشف الحساب؛ فبينما كنت متوقعاً أن يكون المبلغ صفراً كما عهدته ـ وجدت في حسابي خمسة آلاف ريالٍ، حينها توقفت، ولم أَكَد أُصَدِّق ما أرى، فصرت أفكر من أين أتى المبلغ؟ وكيف أتى؟ ومن الذي أدخله في حسابي؟ وكيف عرفه؟ أسئلة دارت في ذهني.

وعلى كل حال أخذت المبلغ؛ إذ لا وقت لدي للتفكير، وليس لي خيار إلا ذلك؛ فملأت سيارتي بالوقود، وتوجهت إلى الزلفي، وأعطيت والدي ما شاء الله أن أعطيه، وذهبت إلى الخياط، وفَصَّلتُ عدداً من الثياب، وتوسعت أيما سعة.

ولكن بقي في نفسي هذا المبلغ من أين أتى؛ فذهبت إلى البنك، وسألت عن المبلغ الذي أُوْدِعَ في حسابي، فقالوا: أَوْدَعَه فلان، فعجبت من ذلك الموقف أيما عجب؛ والسبب هو أن الذي أودع المبلغ صاحب لي، وحاله قريبةٌ من حالي، وقد اشترى مني سيارة قبل مدة طويلة، وبقي من قيمة السيارة خمسة آلاف ريال، ولم أكن أنتظر أن يأتي منه المبلغ في ذلك الوقت، بل ولم يخطر ببالي أن يأتيني إلا مُجَزَّءاً، وبعد أن أُذَكِّرَ صاحبي به، وأنا لم أفكر بتذكيره؛ لعلمي بحاله، ولحيائي منه.

ولكن المفاجاة كانت غريبة عليّ؛ إذ كيف يأتيني المبلغ كاملاً وفي ذلك الوقت العصيب بالنسبة لي.

ولما قابلت صاحبي سألته لأتأكد منه، فقلت له: هل أنت الذي أودع المبلغ في حسابي؟ فقال: نعم، فقلت: ولماذا كان في هذا الوقت بالذات، وكيف حصلت على رقم حسابي؟ فقال: تيسر لي المبلغ، وسألت عن رقم حسابك بطريقتي الخاصة؛ فأودعت المبلغ فيه، وأنا أعلم أنك لن تطالبني، وأنا شاكر لك صبرك عليَّ مع شدة حاجتك.

يقول صاحبي: أدركت بعد ذلك كله أنه فضل الله، ولطفه، ويسره، ولعل تفريج كربة ذلك المسكين هي سبب ذلك الفرج الذي حصل لي.

بِرٌّ وَصِلَة

لي صديق منذ أيام الدراسة الابتدائية، وذلك الصديق على درجة عالية من شهامة الخاطر، وجزالة النفس.

ولهذا الصديق والدان كبيران في السن، وله أخ يكبره بسنوات، وعدد من الأخوات، كما أن له عَمًّا يصغر والده.

وكان هذا الصديق ساكناً هو وزوجته وأولاده في منزل والده في الزلفي، وهو الذي يقوم على رعاية والديه رعاية كاملة.

أما أخواته فجميعهن متزوجات، وأما أخوه الأكبر فيسكن في الرياض؛ حيث إن عمله كان هناك، ويتردد على الزلفي بين الفينة والأخرى.

وكذلك عمّه يسكن في الرياض، ولا يأتي إلى الزلفي إلا لماماً لزيارة أخيه والدِ صديقنا.

والحاصل أن ذلك الصديق بنى له منزلاً، واستغرق مدة في بنائه، وكلفه الشيء الكثير مع أنه ليس من ذوي الغنى، بل هو معلم فحسب.

وكذلك والده كان من متوسطي الحال.

وفي يوم من الأيام زرت ذلك الصديق، وكان لديه جلسة يومية، وبعد انقضاء المجلس باركت له منزله الجديد، وقلت له: إن المنزل كبير؛ ويكفيك أقلُّ من نصفه؛ فهل تريد تأجير شيء منه؟

فقال: هو -كما قلتَ- كبير، ويكفيني أقلُّ من نصفه، ولكني لم أجعله هكذا لتأجيره، وإنما كان ذلك لقصد آخر.

ثم قال: لما أردت الانتقال إلى منزلي الجديد رغب والديْ في المكث في بيتنا الأول، فألححت عليه، وقلت له: إما أن نذهب معاً، أو نبقى معاً؛ فاستجاب لطلبي، وسكن معي هو ووالدتي.

أما بخصوص تكبير المنزل فلي قصد من ذلك ـكما أسلفتـ حيث وضعت فيه جناحاً خاصاً بوالدي ووالدتي؛ وجناحاً خاصاً بأخي وأسرته، وجناحاً خاصاً لعمي كذلك؛ بحيث إذا جاؤوا للزيارة وجد كل واحد منهم مكاناً خاصاً به، ويكونون قريبين من والدي؛ بحيث يلتقونه على الإفطار، والغداء، والعشاء، وبعد المغرب.

وإذا سافروا بقيت أماكنهم الخاصة بهم كما هي لا يدخلها غيرهم.

وكذلك أخواتي إذا زرن والديَّ أخذوا راحتهم في الجلوس مع الوالدين.

فهذه هي فكرة منزلي، وكونِه على هذا النحو من الكبر.

وهكذا سار الأمر على ما يريده ذلك الصديق الشهم البارّ؛ حيث أسعد والديه، وأسعد عمه، وأسعد أخاه وأخواته؛ فكانوا يجتمعون على أنس، وأريحية، وتكرم، ويفترقون على صفاء، ووئام، ويحملون لذلك الصديق كل إعجاب واحترام.

بل إن من زيادة بره بوالده أن خصص له جلسة خاصة، غير جلسته المعتادة، فكان والده يستقبل فيها أصحابه، ومن يريدون السلام عليه.

وقد وفق ذلك الصديق بزوجة تعينه على البر، وتعامل والديه كما تعامل والديها، وهكذا الخير يجر بعضه بعضاً.

ولو أن ذلك الصديق كان ذا أثرة، ولم يكن ذا إيثار وكان همه نفسه فحسب ـ لضاق عيشه، وضاقت نفسه.

ولو لم يكن ذا نفسٍ جزلة واسعة لما قبل ذووه ذلك الوضع؛ ولكنه لما تفسح فسح الله له، ولما وسع على أهله وسع الله عليه، فكان من بر إلى بر، ومن سؤدد إلى سؤددٍ.

ومن كان ذا نفسٍ ترى الأرضَ جولةً فلابــدَّ يومـــاً للــسموات يرتقــي

أين ذلك الصديق مِنْ حالِ مَنْ يتبرم بوالديه، وإخوانه، وجميع من حوله؟

أين هو من ذوي الأثرة القبيحة التي تغالي في حب ذواتها، ولا تريد الخير إلا لنفسها فحسب؟

ثم إن هذا الصديق رعى الحقوق بحيث أسعد زوجته وجعل لها مكاناً مستقلاً، وأسعد والديه وأخاه وأخواته وعمه، بحيث نفى عنهم الحرج من جراء الدخول والخروج، وما إلى ذلك.

ولا يعني هذا العمل من ذلك الصديق أن تكون حالةً يجب أن تطَّرد في البر والصلة.

ولكنها حالة عظيمة تستحق الشكر، وتوحي بالاقتداء، لمن هو قادر على ذلك.

كما أنها تُنْهض من يَقْدِرُ على هذا الصنيعِ وأكثرَ ألا يتوانى في تقديم مستطاعه لمن هم أولى الناس ببره وصلته.

ولم أرَ في عيـــوب النـــاس شـــيئاً كنقص القادرين على التمـــام

جار في المستشفى

يحدث أحدهم عن قصة حصلت لوالده فيقول: كان والدي رحمه الله في أخريات عمره يتردد كثيراً على المستشفى، وربما مكث فيها أياماً، وإذا انتعش وتحسنت صحته خرج إلى البيت.

وكان من عادته في البيت أن يفتح الباب من طلوع الشمس إلى قبيل الظهر، كما أن له جلسة بعد العصر وبعد المغرب، ويأتيه الناس على اختلاف طبقاتهم.

وإذا كان في المستشفى جاءه الناس أثناء الزيارة، فيأنس بهم ويأنسون به.

وكان من عادته إذا كان في المستشفى أن يؤتى إليه بالقهوة والشاي من المنزل؛ كي يقدما للزائرين.

كما أن من عادته -أيضاً- أن يؤتى إليه بالغداء والعشاء من المنزل، ويؤخذ ما يكفيه ويكفي من معه في الغرفة التي يرقد فيها في المستشفى.

ومن القصص التي أذكرها في ذلك الشأن أنه أيام كنا طلاباً كان بعض إخوتي في الابتدائية، وبعضهم في المتوسطة، وذلك في حدود عام ١٣٩٨هـ.

وحصل أن نوِّم في المستشفى رجل ليس من أهل البلد، وإنما هو عابر سبيل حصل عليه حادث سير، فكسرت رجله، وأجريت له عملية تجبير، ووضع فيها الجبس من أعلى رجله إلى أسفلها؛ فكان بجوار والدي في الغرفة، وكان والدي يأمرنا بأن نحضر له القهوة والشاي والغداء والعشاء؛ فاستمررنا على هذه الطريقة حتى بعد أن خرج والدي من المستشفى.

وهكذا سار الحال على هذا النحو حتى قرر الطبيب لذلك الرجل أن يخرج من المستشفى، ثم أعطاه موعداً بعد مدة تقرب من الشهرين؛ ليتم إزالة الجبس عن قدمه.

وبدلَ أن يرجع إلى موطن إقامته الذي يبعد مسافة تزيد على مائتي كيلو - قال لوالدي: أريد أن أقيم عندكم حتى يحين موعد المستشفى؛ فقال له والدي: حياك الله، وعلى الرحب والسعة، فجاء عندنا في البيت وهو على العكاز، ويحتاج إلى من يعينه في قيامه وجلوسه ونومه؛ فأعددنا له غرفةً خاصةً، وصرت أنا وإخوتي نتعاقب على خدمته، وكان لوالدي جلسة في الصباح في مجلسه المعتاد، فنأتي بالرجل إلى المجلس، ثم نعود به إلى غرفته الخاصة، كما كان لوالدي مجلس بعد المغرب في مكان مكشوف يطل على الشارع من المنزل؛ فنذهب بصاحبنا إلى ذلك المجلس، فنعد له فراشاً ومكاناً يلائمه، وهكذا استمر الحال إلى أن حان موعد إزالة الجبس من قدم صاحبنا.

والغريب في الأمر ليس في مكثه الطويل، ولا فيما يقدم له في المنزل؛ فذلك حق يراه والدي لذلك الضيف.

وإنما الغريب هو كزازة ذلك الضيف، وثِقَل نفسه، وكثرة أوامره، وقلة شكره أو انعدامه؛ فنحن شباب صغار، ونريد أن نخرج أحياناً للعب، ونفرح بكلمة الشكر والثناء من والدي وأضيافه، وكثير ما نسمع شيئاً من أضيافنا العابرين.

أما ذلك الضيف فكان يعاملنا بكل فظاظة، وكان يأمرنا بصيغة متعالية؛ بل كان يتعمد ذلك أحياناً؛ إذ لا يأمر الواحد منا بإحضار شيء إلا إذا جلس؛ حيث لا يأمر الواحد منا إذا كان واقفاً، أو يريد أن يأتي بحاجة من داخل المنزل؛ فإذا ما أخذ واحد منا مكانه في المجلس ناداه وقال له: فلان، فإذا قال: نعم، قال: إيتني بكذا، أو أحضر لي الماء، أو ناولني فنجان قهوة، أو كأس شاي.

ووالله ما رأينا منه نفساً طيبة ، ولا كلمة مؤنسة ، ولا ابتسامة راضية طيلة مكثه عندنا.

كل ذلك بمرأى ومسمع من والدي.

ومع ذلك فلم يكن والدي يشعره إلا بالأنس والإكرام.

ونحن لا نستطيع أن نَنْبِسَ بِبِنْتِ شَفَة ، بل ولا إشارة أو تلويح؛ خشية من غضب والدي أو تكدير صفوه.

وبعد أن أزيل الجبس من قدمه ، وشفي تماماً ـ غادر إلى أهله.

وبعد مدة من مغادرته مر ببلدنا ، فزار والدي ، ومكث عنده ما شاء الله أن يمكث ، وكأن شيئاً لم يكن؛ فمعاملته ، وكزازته هي هي ، ومعاملة والدي وبشاشته هي هي.

فهذه خلاصة تلك القصة؛ فسبحان من وهب وسبحان من سلب؛ هذه همة علياء ، ويد معطاءٌ سحاء تجود وتحسن وتهش وتبش.

وتلك يد شلاء ، ونفس كزة إذا هم صاحبها ولو بكلمة طيبة قالت له : مهلاً ، ولسان حال صاحبها كما تقول العامة (محمول ويرفس).

كما أن هذه القصة ترينا وجهاً من وجوه الحياة الجميلة ، وتعرض لنا لوحة حسنةً براقة تخلب ألباب ذوي المروءة ، والشهامة.

كما ترينا وجهاً من أوجه اللؤم المتأصل في بعض النفوس؛ فلا تحس لمروءتها وجبةً ، ولا تسمع لها ركزاً.

مروءة ضرة

عالم الضرات ـ كما يتصوره كثير من الناس ـ عالم مليء بالمكائد، والتربص، والويلات؛ إذ الغَيْرة فيه قائمة على أشدها، وعن الغيرة حدث ولا حرج.

وقبل الدخول في موضوع العنوان يحسن الحديث عن الغيرة بشيء من الإيجاز، فالغيرة غريزة جبلت عليها النفوس، خصوصاً النساء المتزوجات؛ فالغيرة طَبْعٌ في النساء، فإذا استرسلت المرأة معها كانت الغيرة مذمومة، وإذا هذبتها وقومتها كانت الغيرة محمودة؛ فالمذموم منها تلك الغيرة التي تتأجج في صدر صاحبتها ناراً موقدة تشعل جيوش الظنون والشكوك؛ فتحيل جوَّ الأسرةِ جحيماً لا يطاق.

والغيرة المحمودة هي المعتدلة التي لا تتسلط على صاحبتها؛ فلا تثير عندها شكوكاً ولا أوهاماً؛ فهذه غيرة مقبولة، وقد تستملح أحياناً، بل إن التجرد من الغيرة لا يحمد.

فالغيرة -إذاً- ليست شراً محضاً، وإنما الشر فيما كان مبالغاً فيه من الغيرة؛ فغيرة المرأة على الرجل هي -في الحقيقة- إحساس صادق لمدى حبها له، وهي في الوقت نفسه صورة معبرة عن حرصها على الاستئثار به، وهي -كذلك- حالة نفسية تعبر عن خوف المرأة على مستقبلها في الحياة؛ فهذا المزيج من الحب الخالص، والأثرة المفرطة، والخوف الزائد ـ يصنع في المرأة عاطفة الغيرة.

إن شعور المرأة بحبها لزوجها قد يدفعها إلى إسعاده، وتهيئة الجو المناسب لتحقيق آماله.

غير أن إحساسها بحبها لنفسها، وخوفها على مستقبلها في الحياة قد يقودها إلى فرض القيود على زوجها الذي أحبته؛ مؤملة بذلك أن يكون خيره كله لها، ولأولادها.

وقد تزيد الغيرة عن هذا الحد، فتودي بالمرأة إلى تصرفات غريبة شائنة بدايتُها الشكُّ في الزوج؛ وتفسير تصرفاته على غير وجهها؛ فتشك فيه إذا الْتَفَتَ فرأى امرأة تسير، وتشك فيه إذا رفع سماعة الهاتف فخفض صوته، وتشك فيه إذا غاب لسفر أو نحوه، وتشك فيه إذا تشاغل عنها في بعض الأحيان.

كل ذلك مع أن الزوج لم تظهر عليه أمارات الفساد، ولا الجناح إلى الشر.

وقد تزيد في مطالبها لزوجها، فتستنزف ماله قدر المستطاع؛ كيلا يذهب شيء منه إلى أمه، أو إخوته، أو لأجل أن لا يبقى عنده فضل مال يتزوج به زوجة أخرى.

ثم بعد ذلك تبدأ آلامها؛ لانتفاع غيرها بزوجها، ثم تنتقل إلى اتهام أهل زوجها، وإلى إثارة المنازعات، وتدبير المكائد، وربما تلجأ إلى السحر عياذاً بالله، إلى غير ذلك من التصرفات الطائشة الشائنة.

إن نيران الغيرة تلتهب بوقود خاص، وهذا الوقود قد يكون نقياً نظيفاً؛ فتمنحنا نيرانه النور، والدفء، والأمل.

وقد يكون قذراً لا ينبعث من نيرانه غير دخان يزكم الأنوف، ويعمي الأبصار.

ومن أسباب ذلك الوقودِ القذرِ ضعفُ التربية الدينية والخلقية، وهذا ما يثير الأطماع، ويحيي الأحقاد.

ومن أسبابه جهلها بالعواقب.

ومن أسباب ذلك ـ أيضاً ـ حماقة الرجل، وسوء تصرفاته.

ولهذا يجب على الزوجة التي تروم السعادة لنفسها ولزوجها أن تعتدل في غيرتها.

وإذا كان الاعتدال في الغيرة مطلوباً على كل حال ـ فهو مطلوب من المرأة إذا بليت بضرة أو أكثر.

ولا ريب أن ذلك مصيبة في حقها، ولكن سوء التصرف إزاء هذا الأمر كفيل بجعل المصيبة مصائب، وحسن التصرف قائد ـ بإذن الله ـ إلى تخفيف تلك المصيبة، أو تلاشيها، أو إلى قلبها نعمة؛ فتكون منحة في طي محنة.

ولا ريب أن ذلك الصنيع يحتاج إلى نفس كبيرة، وصبر عند الصدمة الأولى، ونظر في مآلات الأمور وعواقبها ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ فصلت:٣٥

ومهما يكن من شيء فإن ذلك ليس متعذراً ولا مستحيلاً، وقد أرانا العيان نماذج من ذلك القبيل.

وهذه النماذج ليست من ضرب الخيال، ولا من عالم المثال، بل ولا من أناس عاشوا في زمن بعيد، فقضوا ومضوا.

وإنما هي من نساء عُقْلَيات يعشن بين ظهرانينا الآن، وإليكم هذا النموذج الحي.

هذه امرأة خطبها رجل قبل ما يزيد على ثلاثة وأربعين عاماً، وذلك الرجل لديه زوجة وعدد من البنين والبنات، ويكبر المخطوبة بسنوات ليست بالقليلة.

وأما مخطوبته فكانت بكراً لم تتجاوز السابعة عشرة من عمرها، وكانت محط أنظار الشباب الذين لم يتزوجوا بعد.

غير أن ذلك الرجل بذل غاية ما يستطيع من المحاولات التي قوبلت بالرفض، ولكنه لم ييأس حتى ظفر ببغيته.

وكانت تلك المرأة الجديدة الصغيرة ذات دين وعقل، وصيانة، وحسن تربية.

ولما قدمت إلى بيتها الجديد الذي كان في بلد بعيدٍ عن بلد أهلها ـ لم تُدِلَّ بنفسها، ولم تشمخ بأنفها على ضرتها، ولم تستنكف من أولاده.

بل عاشت معهم في بيت واحد، وعدَّت نفسها واحدة من أهل ذلك البيت، وعاملت ضرتها بأحسن ما تكون المعاملة، وعدَّت أولاد زوجها من ضرتها أولاداً لها.

وهكذا مرت الأيام دون أن تشتكي أو تتبرم من أحد من أهل البيت، بل وقامت مع ضرتها برعاية والدي زوجها خير رعاية إلى أن فارقا الدنيا.

وعاشت مع زوجها وضرتها وأولاد زوجها متعاونين متوادين إلى أن فارق زوجها الدنيا بعد أن عاش معها قرابة ثلاثين عاماً.

وقد كان بينهم جميعاً من الود ما يفوق الوصف، ومما كان من ذلك أن تلك الزوجة الثانية لم ترزق بأولاد؛ فكان أولاد ضرتها، بل وأحفاد ضرتها يحبونها كمحبتهم لوالدتهم وجدتهم؛ فكانوا يستشيرونها في كل صغيرة وكبيرة، وكانوا معها على تواصل مستمر يكاد يفوق تواصلهم بأمهم، وجدتهم.

وكان ذلك على مرأى ومسمع من أمهم وهي لا تنهرهم، ولا تنهاهم عن ذلك، بل إنها تضمر لضرتها الود والاحترام.

ومما كان بينهم ـ أيضاً ـ أنه لما مات الزوج، وانقضت عدة زوجته أرادت الزوجة الأخيرة أن تأتي إلى بيت أهلها؛ فخشيت ضرتها وأولاد الضرة أن تذهب عنهم، وتسكن في بيت أهلها؛ فما كان منهم إلا أن رافقوها جميعاً إلى بلدة أهلها.

ولما وصلوا إلى بيت أهلها دخلوا معها على أمِّها تتقدمهم الضرة ومن خلفها بعض أولادها، فقالت الضرة لأم الزوجة الثانية: هذه فلانة انقضت عدتها، وأتت لزيارتكم كالعادة؛ فإن كانت المسألة زيارة ثم ترجع معنا إلى بيتنا فالحمد لله، ولتمكث عندكم ما شاء الله لها أن تمكث.

وإن كانت الأخرى بحيث أنها سَتَدَعُنا، وتقيم عندكم إقامة دائمة ـ فلن نبرح مكاننا هذا، وسنقيم معها حيث أقامت.

قالت الضرة ذلك وهي تبكي ومن ورائها أولادها يبكون.

فقالت أم الزوجة الثانية: إن فلانة ـتعني ابنتهاـ عاقلة رشيدة؛ فإن أرادت المكث عندنا فهذا هو منزلها، وهي محل التقدير والترحاب مني ومن إخوانها، وإن اختارت العيش معكم فلها ذلك.

حينها أجهشوا بالبكاء، وتوسلوا إلى زوجة أبيهم أن توافقهم على طلبهم وأن تعيش معهم، وتأتي لزيارة أمها وأهلها متى شاءت؛ فأجابتهم ووافقتهم على طلبهم، ففرحوا أيما فرح، وقالوا: إذاً نودعكم وسنعود إلى بلدنا

منتظرين عودة أمِّنا الثانية؛ فمكثت فترة عند أهلها، ثم عادت إلى مكانها الأول، حيث أُعِدَّ لها مكانٌ خاصٌّ بين بيوتهم، مجاور لضرتها تماماً وبينهما باب لا يغلق.

ومما كان ـ أيضاً ـ بين الضرتين من الود أن الأولى لا يمكن أن تتناول قهوتها في الصباح إلا بحضرة الثانية، ولا تذهب إلى سفر سواء كان ذلك إلى مكة المكرمة أو غيرها إلا بصحبة ضرتها.

بل إن الزوجة الثانية إذا ذهبت إلى زيارة أهلها لا يتوقف هاتفها الخاص من اتصالات ضرتها، أو أولاد الضرة وأحفادها.

بل إنهم يستعجلون عودتها، وإذا تباطؤوها زاروها عند أهلها، وإذا علموا وقت عودتها تنافسوا على المجيء لأخذها.

فهذه نبذة يسيرة من حال تلك الضرة، وما ذكرته لم يحدثني به أحد، بل وقفت عليه بنفسي، ولا أزال أقف على أضعاف أضعاف ما ذكرته، ولو استرسلت في ذلك لخشيت ألا أُصَدَّق.

بل إن من يعرف تلك الحال لا يستغرب، وربما عاتبني على تقصيري.

وهكذا نرى أن النفوس إذا زكت، وآثرت، واستعلت ـ كانت العاقبة حميدة مريئة في العاجل والآجل.

وعن الإيثار لا تسأل فما … أجمل الإيثارَ عند الكرماء

ولكنها إذا استأثرت، ولجَّت في عتوها ونفورها خسرت من الدنيا والآخرة بقدر ما انتقصت من معاني الإيثار، وبقدر ما استوفت من معاني الأثرة.

تطعم العمال كل يوم

نقرأ في شأن الجوار ما كان عليه العرب في جاهليتهم وإسلامهم من حفظ لحق الجار، وإكرامه، والقيام بحقه، ودفع الأذى عنه.

وأشعارهم وأخبارهم في ذلك الشأن أشهر من أن تذكر[1] ومن ذلك قول الحطيئة:

لعمرك ما المجاور من كليب ... بمقصىً في الجوار ولا مُضاعِ

هُمُ صَنَعٌ لجارهم وليست ... يد الخرقاء مثلَ يد الصَّناعِ

ويحرم سرُّ جارهم عليهم ... ويأكلُ جارُهم أُنُفَ القصاعِ

ويعني بقوله: أنف القصاع: الطعام المستأنف الذي لم يؤكل منه شيء.

ويقال: إن أهجى بيت قالته العرب هو قول الأعشى:

تبيتون في المشتى ملاءًا بطونُكم ... وجاراتكم غَرثى يَبِتْنَ خمائصا

بل لقد غالى العرب، وبالغوا في المحاماة عن الجار؛ إذ لم تتوقف محاماتهم عن الجار الإنسان، بل لقد تعدوا ذلك، فأجاروا ما ليس بإنسان إذا نزل حول بيوتهم حتى ولو كان لا يعقل ولا يستجير؛ مبالغة في الكرامة والعزة، وتحدياً لأحد أن يخفر الجوار، مثل ما فعل مدلج بن سويد الطائي الذي نزل الجراد حول خبائه، فمنع أحداً أن يصيده حتى طار وبعد عنه.

وكان كليبٌ يمنع أن يقترب أحد من الوحش إذا جاوره، ويقول: لقد جاورني!

---

١ - وقد بسطت شيئاً من ذلك في كتابي: (التقصير في حقوق الجار).

أما وصايا الإسلام بالجار فحدث ولا حرج، ويكفي في ذلك أن الله ـ عز وجل ـ قرن حق الجار بعبادته وتوحيده، وبالإحسان إلى الوالدين والأرحام واليتامى كما في قوله ـ عز وجل ـ ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ النساء: ٣٦.

وأن النبي ﷺ قال: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» رواه البخاري ومسلم.

أي ظننت أنه سَيَبْلُغني عن الله الأمرُ بتوريث الجارِ الجارَ.

وهذه كلمة بالغة جامعة تدل على أن الوصاية بالجار على جانب عظيم من التأكد.

هذا وإن مجتمعات المسلمين لا زالت ـ ولله الحمد ـ ترعى هذا الحق، وتقوم به على الوجه الأكمل.

والحديث ههنا ليس عن القيام بحق الجار والمجاور الأصلي، بل إنه عن لون من ألوان القيام بحق الجار الطارئ الغريب الذي ليس له قرار، وإنما اقتضت الحال أن يكوي عمله لا مقر سكنه في مكانٍ ما؛ فذلك لون شريف من ألوان القيام بذلك الحق، إذ يصدق عليه أنه جار، وإلا فهو يقوم بعمله في هذا المكان فترة من فترات اليوم، وفي مدة زمنية محدودة تنتهي بنهاية العمل المناط به، كحال عمال البناء وإنشاء الطرقات ونحوهم.

ومما يحضرني في هذا الشأن ما يحدثني به أحد أعزة الأصحاب من أن دائرة حكومية تبنى قريباً من منزلهم، ويَعْمل فيها عدد من العمال.

ويقول: إن والدته لما علمت بذلك صارت تصنع وجبةَ غداءٍ خاصة بهؤلاء العمال، وترسلها إليهم يومياً.

وهذه الوجبة ليست مما يبقى من طعام أسرتنا، بل إنها تُصْنع طعاماً خاصاً لهؤلاء، وتلائم رغبتهم في ذلك.

بل إنها -كما يقول ابنها- تنوع الطعام حتى لا يملوا، ولا يقر لها قرار بعد الظهر حتى ترسل أحد أبنائها أو أحفادها بالطعام لأولئك العمال.

وكلما قابلت ابنها سألته عن هذا الشأن، فيجيبني بأنها مستمرة على صنيعها.

وآخر مرة سألته أجابني بما أجابني به سابقاً، فسألته عن المدة التي مضت على هذه الحال، فقال: الآن مضى أكثر من سنة تقريباً.

وقد يظن ظان أن هذه المرأة من بيت مُغْرِقٍ في الثراء، وأن لديها من الخدم من يقوم بإعداد الطعام، وأن تكتفي بإصدار التوجيهات -وأكرم بذلك- .

والحقيقة أنها من بيت متوسط الحال، ولكنه مُعْرِق في الفضيلة، وأنها هي التي تقوم بإعداد الطعام، وتنويعه، وتشرف على إرساله.

ولا ريب أن هذه الصورة من المروءة تعطينا درساً في المعروف، وملازمة تقديمه، والصبر على استمراره.

كما تعطينا صورة من صور الرحمة بالغريب، والحرص على إيناسه، وإزالة وحشته، وأن ذوي المروءات قد شربوا حُبَّ الإحسان لأي أحد كان؛ فسواءٌ عندهم أن يكرموا ذا الهيبة الوافرة والمكانة العالية، أو من كان ممن لا يؤبه له، ولا يلتفت إليه.

وتلك شعب إيمانية عظيمة، وخصال عالية من المروءة الشامخة.

كرم الجوار

كنت في أحد المجالس في مكة المكرمة، وكان الموضوع يدور حول المروءات، وما جرى مجراها.

ومن جملة ما دار في ذلك المجلس حديث عن الجوار، وحقوقه، وذكر بعض القصص في الجوار، ومن ضمنها قصة أبي الجهم العدوي مع جاره سعيد بن العاص، وخلاصتها: أن أبا الجهم العدوي باع داره بمائة ألف درهم، ثم قال: بكم تشترون جوارَ سعيد بن العاص؟ قالوا: وهل يشترى جوارٌ قط؟

قال: ردوا عليَّ داري، وخذوا مالكم؛ لا أدع جوار رجل إن قعدت سأل عني، وإن رآني رحَّب بي، وإن غبت حفظني، وإن شهدت قربني، وإن سألته قضى حاجتي، وإن لم أسأله بدأني، وإن نابتني نائبة فرَّج عني.

فبلغ ذلك سعيداً، فبعث إليه بمائة ألف درهم.

وبعد أن أوردت القصة كان من ضمن الحاضرين أحدُ الأفاضل، فقال: سأذكر لك قصة حصلت لي مع أحد جيراني.

وملخصها أنه كانت لي قطعة أرض، وبجانبها قطعة أرض لجاري.

وهاتان القطعتان تقعان في مكان مميز في مكة المكرمة.

وحصل أن قام جاري ببناء عمارات للسكن في أرضه، ودخل على أرضي، وبنى فيها، وهو يعلم أنها ليست له، فلم أتكلم بكلمة اعتراض.

ولما انتهى من البنيان صار جاري يؤجر العمارة، واستمر على ذلك مدة ثلاث عشرة سنة حتى توفي.

وبعد وفاته ذهب بعض الأصدقاء إلى أحد أولاد ذلك الرجل؛ فأخبروه بالأمر، فجاء إلي ولده وقال: هذه أرضك لك، وهذه قيمة الإيجار طيلة السنوات الماضية، وهذه العمارة بكاملها ملك لك، ونرجو أن تسامح والدنا.

فقلت له: أما المسامحة فقد سامحت والدكم منذ أن توفي، وأما الإيجارات فلن آخذ منها شيئاً، وأما الأرض فقد رجعت لي، وسوف أعطيكم قيمة البناء.

فرفض الابن وألحَّ علي جداً.

وبعد أن طال الحديث اتفقنا على أن تكون لي العمارة دون إيجارها الذي يعدل قيمتها مراراً، وانتهى الأمر بهذه الصورة.

ثم طلب مني ذلك الابن أن أزوره في منزله؛ فزرته، وأكرمني غاية الإكرام، وإلى الآن وعلاقتنا على خير ما يرام.

ويحدثني ذلك الفاضل -أيضاً- عن جار له آخر، فيقول: كان لي جار كريم فاضل عابد، وكان ذا غنى ويسار، وبيني وبينه مودة ومعروف.

وكان لجاري منزل كبير، وله أولاد في بلد آخر يزورونه بين الفينة والأخرى، وليس في المنزل إلا هو وزوجته، وفي إحدى زوايا ذلك المنزل ملحق يسكن فيه خادم مع زوجته.

وفي يوم من الأيام كنت أنتظر ضيوفاً سيقدمون علي مع أهليهم، وسيمكثون مدة طويلة عندي، وقد أعددت مقر إقامتهم.

ولما وصلوا أخطأوا منزلي وطرقوا باب جاري، وسألوه: أين بيت فلان -يقصدونني- فقال: هذا بيته، تفضلوا، ثم أخذ زوجته إلى الملحق في سكن العامل وزوجته وسكن فيه، وأدخل الضيوف في منزله العامر الكبير.

وبعد ذلك توقع أنني أنتظر ضيوفي، فخرج من منزله، ورآني في الشارع، فقال: ما خطبك؟ فقلت أنتظر ضيوفاً تأخروا علي، فقال: هم عندي، فقلت: إذاً نذهب إليهم؛ لكي يأتوا إلى بيتي، فقال: إن فعلت ذلك، أو أخبرتهم بشيء فهو فراق بيني وبينك، وأنا وأنت سواء.

فنزلت عند رغبته، وذهبنا إلى الضيوف وكأن شيئاً لم يكن.

واستمروا مدة أربعين يوماً، حتى غادروا، وإلى هذا اليوم وهم لا يعلمون ماذا جرى، ويظنون أن البيت الذين نزلوا فيه بيتي.

شهامة مسؤول

من أروع ما تراه أو تسمعه أن تجد شخصاً يسعى في مصلحتك وأنت لا تعلم، وتزداد الروعة إذا كنت لا تنتظر ذلك منه.

ومن أقبح ما تراه أو تسمعه أن تجد شخصاً يسعى إلى الإضرار بك في الخفاء، مع أنك لم تقترفْ ما يوجبُ ذلك، وأنك لست من منافسي ذلك الشخص، وليس له أي مصلحة في الإضرار بك، وإنما هو عمل خالصٌ لوجه الشيطان.

ويزداد القبح إذا صدر ذلك ممن تؤمل فيه الخير.

وإخوان حسبتهم دروعاً فكانوها ولكن للأعادي

ومن جميل ما أذكر ههنا ما حدَّث به أحدهم عن موقف مرَّ به، حيث يقول: كانت لي معاملة في عملي، وكانت حول ترقيتي، وتحسين وضعي الوظيفي.

وكنت أستحق ذلك، ولكن الحالة تتطلب متابعةً، وشيئاً من التدخل الجراحي المتمثل في فيتامين واو.

وسارت المعاملة دون أن أعلم بتفاصيلها، غير أن أحد المقربين إليَّ كان يشعرني بين الفينة والأخرى بأنني عملت في موضوعك كذا وكذا، وكلمت فلاناً في شأنك، حتى إنني كنت أضجر من ذلك، وليس السبب في ضجري ما يقوله ذلك الأخ، وإنما كان ذلك لأنني أعلم أنه لم يقم بشيء يستحق الذكر، وإلا فلا بأس أن يخبرك أحد من الناس أنه قام بأي عمل من أجلك، أو أن تراه يوافيك بالجديد في شأنك.

بل إن ذلك ممن يزيد في سرورك، ويقوي آصرتك بأخيك.

لكن المصيبة إذا كان لا يعمل شيئاً يستحق الذكر، ثم تراه يُضَخِّم الأمر، ويدعي أن السبب في حصول بغيتك؛ فذلك نوع منَّة، ولا يحتملها ذو مروءة إلا في حال ضرورة، وذلك ما حدا بالحكيم العربي أن يقول:

مِنَنُ الرجالِ على الـ قلوب أشد من وقع الأسنة

وبالبارودي أن يقول:

تحملت خوف المنِّ كل رزية وحمل رزايا الدهر أحلى من المنِّ

وما هي إلا أيام ثم انتهى الموضوع على ما يرام، ولم أكن أعلم بتفاصيل سير معاملته.

يقول صاحبنا: وبعد مدة من الزمن حدثني أحد الزملاء أن الموضوع كاد ألا يتم، وأن المسؤول الفلاني الرفيع المستوى في ذلك المرفق الحكومي قد قاتل من أجلك كثيراً، وقال في اجتماع اللجنة المعنية بهذا الشأن: إذا لم يلبَّ طلبُ فلانٍ ولو بالاستثناء فَمَنْ يلبَّى طلبه إذاً؟

ثم ساق في ذلك الاجتماع مسوغات عدة، فما كان من أعضاء اللجنة إلا أن وافقوا على الطلب.

يقول صاحبنا: لما سمعت بذلك فرحت كثيراً، ولم يكن فرحي بحصول مطلبي بقدر فرحي بذلك الموقف النبيل من ذلك المسؤول الفاضل الذي لم أكن أتحرى منه ذلك الموقف بقدر ما توقعته من غيره.

وزاد فرحي بأنني كنت خلال تلك الفترة أقابل ذلك المسؤول عَرَضاً في بعض الأحيان، ولم أسمع منه كلمةً واحدة في ذلك الشأن.

وبعد أن علمت بموقفه اتصلت عليه، وشكرت له صنيعه، ودعوت له، وأكبرت موقفه، وقلت له: لِمَ لَمْ تخبرني بالذي كان حتى أزداد حباً، ودعاءً لك؟.

فقال لي: لا تظن أني عملت شيئاً يستحق الذكر؛ فلعلَّ الذي أخبرك بالغ في تصوير الأمر، وإلا فهو أهون من ذلك.

فقلت له: بل قد قُمْتَ بشيء عظيم، وأعظم ما فيه أنك قمت به من تلقاء نفسك، دون أن أطلب منك ذلك، ودون أن تخبرني بصنيعك بعد ذلك، فأنت كما قال الأول:

يخفي صنائعه والله يظهرها ... إن الجميل إذا أخفيته ظهرا

فقال: ما دام أن الأمر كذلك فأنا أود أن أخبرك بأنني لم أقم إلا بالواجب الذي تمليه عليَّ أمانتي، ولو لم أقم بذلك لعددت نفسي مقصراً، ولخشيت من الإثم والحرج؛ فلا تشكرني على واجب عليّ، ولئن شكرتني فذلك فضل منك وتكرم.

مروءة طالب

العلاقات الإنسانية كثيرة، وأسباب التعارف بين البشر متنوعة.

ولعل من أظهرها، وأكثرها إيتاءً للثمار الطيبة ما كان باعثها اللقاء في قاعات الدرس والعلم.

ولو بحثتَ في كثير من الصداقات الطويلة لوجدت أن أول لقاء حصل بين طرفي الصداقة كان في المدرسة أو الجامعة.

وكم من الناس من يحنُّ لمدرسته أو جامعته حنين الإبل إلى معاطنها، وما ذلك إلا لأنها تذكرهم عهود الصبا، وأيام الشباب، فيحنُّون لذلك.

ولعل أجمل أيام الدراسة أيام الجامعة؛ لما فيها من النضج، وتنوع العلاقات، وما يتخلل ذلك الجو من التعاون، وما يكتنفه من المروءات.

وإن من أمتع ما تراه في قاعة الدرس الجامعيِّ اختلافَ أجناسِ الطلاب من حيثُ بلدانُهم، ودولهم، وأسرهم، وقبائلهم.

ومع ذلك ترى في كثير من الأحيان أن قاعة الدرس مفعمة بالود، والتعاون، والاحترام المتبادل بين الطلاب؛ فتجد بعضهم يسعف صاحبه بالمذكرات، أو الملخصات، أو الكتب المطلوبة.

بل ربما قطع المسافاتِ أوقاتَ الامتحاناتِ؛ لِيُمِدَّ زميله بمذكرة جديدة، أو ملخص لامتحان قادم، خصوصاً قبل أن تُعرف خدمات البريد الإلكتروني، والجوالات الذكية التي يسَّرت أمور الناس.

ويعجبك في ذلك الجو تعاون الطلاب، ومواساة بعضهم لبعض، والتماسهم العذر لبعض عند الأساتذة على اختلاف بيئات أولئك الطلاب، وبلدانهم،

وأسرهم - كما مر -.

ويعجبك - كذلك - إيناسُهم للغريب منهم، وتفقد أحواله، وما جرى مجرى ذلك.

فهذه العلاقة الروحية الطاهرة وما يدور في فلكها من أجمل ما تراه أو تسمع عنه في العلاقات الإنسانية.

هذا وإن أخبار المروءات في تلك العلاقات يطول، والكلام فيه نادر قليل؛ إذ قد يُظن أن المروءات إنما هي للكبار دون الشباب.

ولا ريب أن ذلك خطل وخلل؛

فما الحداثة عن حلم بمانعة ... قد يوجد الحلم في الشبان والشيب

و:

لا تنظرن إلى الفياض في صغرٍ ... في السن وانظر إلى المجد الذي شادا

إن النجومَ نجومَ الليل أصغرُها ... في العين أبعدها في الجو إصعادا

بل إن الأمر لا يقتصر على الطلاب في المراحل الجامعية المتقدمة، بل إن ذلك قد يوجد فيمن دونهم.

ويحضرني في ذلك الشأن مواقف كثيرة جداً، ولو استرسلت في ذكرها لطال المقام، ولعل الله ييسر فرصة لكتابة مستقلة عنها.

وأذكر ههنا موقفاً حصل قبل ما يزيد على اثنتين وعشرين سنة؛ حيث كنت أدرس في أحد المعاهد العلمية قبل انتقالي إلى التدريس في الجامعة.

وخلاصة هذا الموقف أن طالباً من الطلاب كان يأتي من أحد هجر البادية، وكان متميزاً عن غيره من الطلاب بخُلقه، وسمته، وعلمه، وذكائه،

وحرصه، ومروءته، وحدبه على زملائه، وحبه لهم، وقيامه بشؤونهم، إضافة إلى تفوقه الدراسي؛ فهو صاحب الترتيب الأول على زملائه.

زيادة على احترامه للمعلمين، والقائمين على العمل في ذلك المرفق، وله في ذلك أخبار تطول.

وأذكر من تلك المواقف الرائعة أن صاحبنا هذا كان في السنة الثالثة الثانوية، وكان الوقت وقت الامتحانات النهائية، وكان له زميل متفوق، ولا تربطه به علاقة قرابة أو جوار.

وقد أصيب ذلك الزميل في أيام الامتحانات بحالة نفسية عنيفة من جراء الإرهاق، والمذاكرة، والتوتر، حتى إنه لم يستطع مواصلة المذاكرة في أحد الأيام؛ فعلم صاحبنا الشهم بما حل بزميله، فذهب إليه، وأخذ يخفف من معاناته، لكنه لم يفلح في بداية الأمر، فاتصل علي، وأخبرني بالأمر؛ فذهبت إليهما، والتقيتهما، فصرنا نخفف عن ذلك الطالب، ونخبره أن الخطب يسير، وأن حالتك ستؤول إلى الأفضل، وأنك تحتاج إلى قليل من الراحة حتى تسترد عافيتك، ونحو ذلك مما يمكن أن يقال في مثل تلك الحال.

ولكننا لم نفلح في ذلك؛ حيث كان صاحبنا منهكاً، وخائفاً من ألا يتمكن من أداء الامتحان جملة، أو ألا يتمكن من أدائه على الوجه المطلوب، فتفوته الدرجات، ويؤثر ذلك عليه بالسلب في باقي المواد الأخرى.

فلما وصل إلى تلك الحال قام صاحبنا الشهم بمبادرة لم تخطر بالبال؛ فكانت سبباً في تنفيس الكربة، ثم تفريجها تماماً.

فما تلك المبادرة يا ترى؟

الحقيقة أنها ليست مبادرة فحسب، بل هي تضحية على الأصح.

ألا وهي أنه قال لزميله: يا فلان! هل يليق بك أن تقتل نفسك بهذه الطريقة بسبب امتحان؟ يا فلان! أنت أهم عند نفسك وعندنا من الامتحان.

فقال له زميله: أخشى أن يقع ما قلته لك سابقاً.

فقال له صاحبه الشهم: وإذا وقع ما تتوقعه فماذا سيكون؟ هل هي نهاية الدنيا؟ فالامتحان يعوَّض بامتحان، ولكن صحتك، وسعادتك وحياتك لا تعوض عندنابشيء.

وبعد ذلك نفث صاحبنا الشهم نفثته التي كانت كالترياق لزميله الذي قام بعدها وكأنما نشط من عقال.

وتلك النفثة ليست رقية، وإنما هي موقف سجله، وأصر عليه، فكان ما كان.

أما هذه النفثة فهي قوله لزميله: يا فلان آمل منك الآن أن تأخذ قسطاً من الراحة، وأنا موجود عندك، ثم تقوم بعدها وتراجع ما ذاكرته سابقاً، وتقنع بما ييسر الله لك من ذلك؛ فإذا جاء يوم غدٍ، وكنت مستعداً للامتحان فبها ونعمت.

وإذا لم تكن كذلك، ورغبت في عدم الدخول للامتحان فلن أدخله أنا - أيضاً - بحيث أتخلف عنه معك.

وتعلم يا صاحبي أنني جادٌّ في كلامي؛ فوالله إن لم تدخل للامتحان غداً فلن أدخله؟

وعندما سمع زميله ذلك الكلام تغيرت نبرة صوته، وملامح وجهه، وقال لزميله: كيف تفعل ذلك؟ وما ذنبك؟ وما الذي يحدوك إلى ذلك الصنيع، خصوصاً وأنك أنت الأول على الدفعة، وربما يكون ترتيبك من الأوائل على مستوى المملكة؟

فقال له صاحبه الشهم : أريد أن أخبرك بشيء من مكانتك أولاً! وأريدك أن تعلم أنك أهم عندي من الامتحان ، وأن الامتحان بدله امتحان ، والسنة الدراسية بدلها سنة دراسية أخرى ، وأن الأمر يسير بحمد الله.

وما هي إلا لحظات يسيرة بعد هذا الحوار حتى تهلل وجه صاحبنا المجهودِ ، وأقبل على زميله ، يدعو له ، ويقول لنا : لقد شعرت بعد هذا الحوار براحة كبيرة ، وكأن جبالاً قد نزلت من على منكبي ، وإن شاء الله سأؤدي الامتحان غداً ، وسأوفق ـ بإذن الله تعالى ـ.

وبعدها تفرقنا ، ونحن فرحون بذلك الموقف النبيل ، وتلك النتيجة الباهرة.

ولما جاء الغد حضر ذلك الطالب هو وزميله إلى قاعة الامتحان ، وأدياه معاً ، وأديا بقية الامتحانات بيسر وسلاسة ، وخرجت النتيجة ، وكانا من المتفوقين.

وبعد أن تخرجا دخلا الجامعة ، وواصلا تعليمهما العالي ، وصاحبنا الشهم نال الدكتوراه ، وهو الآن من سؤدد إلى سؤدد ، وصاحبنا الثاني يسير في ذلك الطريق ، ولا يقل عن صاحبه الشهم في العلم ، والفضل ، وهو في طريقه الآن إلى الدكتوراه.

مروءة شاعر

للشعر سلطان على القلوب، وسطوة على النفوس، وأثر في نجاح البغية، وبلوغ المأرب.

كما أن له تأثيراً في تغيير الطباع، وإنهاض النفوس، وهَزِّها إلى المكارم.

والحديث عن الشعر ذو شجون، ولا يمكن الوفاء به في هذا المقام.

فالشعر أحد الفنون الجميلة التي يتذوقها الناس، ويستشهدون بها، ويتروَّونها، ويكون لها الأثر البالغ في نفوسهم، وإن كانوا يتفاوتون في ذلك على قدر تفاوتهم في صفاء الذوق، وتقدير ما في المعاني من حكمة، وغرابة، وحسن التئام، أو تقدير ما في الألفاظ من رونق، وحسن سبك، وشدة أسر، وجودة تركيب.

ولقد أجمع العلماء على أن الشعر كلام حسنه حسن، وقبيحه قبيح.

ثم إنهم لا يحبذون التمحُّض للشعر، بحيث يغلب على الإنسان، ويأخذ بمجامع قلبه.

وإنما يستحسنون الإحماض فيه، والاستشهاد به، وأن يكون الاهتمام به ثانوياً لا أولياً.

وكانوا يرتاحون لسماع جيده، ويصرفون شيئاً من أوقاتهم في صناعته، أو تذوق بلاغته.

وما ذلك إلا لشدة تأثيره، وتضمنه للحُكْمِ والحكمة.

جاء في صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن من الشعر لَحِكْمَة**».

ويروى: «لَحُكْماً» كما في المسند، وسنن أبي داود.

أي إن من الشعر كلاماً نافعاً يَحْمِلُ على الحلم، والعلم، والعدل، والكرم، ويمنع من الجهل، والسفه، والظلم، والشح، والبخل، والهلع.

وقيل: أراد بها المواعظ، والأمثال التي ينتفع بها الناس.

ولقد خرج النبي ﷺ في بيئة عربية تتنافس في نظم القصيد، والرَّجَزِ؛ فكان من دواعي إعجابها، واغتباطها ما كان يفيض من قرائح شعرائها، وخطبائها في المفاخرات، والمنافرات، والحَمَالات، والمهادنات.

وما كان لكل عربي أن ينفتق لسانه بقول الجيد من الشعر أو النثر؛ فقد يأتي الجيل والجيلان والقبيلة العظيمة لا يظهر فيها شاعر أو خطيب يعلي صوتها، ويعدد من عام إلى عام مآثرها، ويرفع -بما ينشؤه- الضيم عن أهلها، ويُرهب -بسلطان بلاغته- عدوَّها.

ولقد كان الشعر آنذاك أشبه بوسائل الإعلام في عصرنا الحاضر؛ فكان له صولةٌ وجولةٌ، ونفوذٌ ووقعٌ في النفوس؛ فكان يخلد المآثر، ويبين المروءات والمكارم.

ولقد أدرك النبي ﷺ هذه الحقيقة؛ فكان للشعراء نصيب عنده -عليه الصلاة والسلام- وذلك من خلال توجيهه إياهم، واستماعه لهم، واستنشادهم شِعْرَهم، وحَضِّهم على نصرة الإسلام، والدفاعِ عنه، وبيانِ محاسنه؛ فكان يشجعهم، ويسددهم، ويدعو لهم، ويكافؤهم، ويستشهد بشعرهم، وربما استوقفهم وناقشهم، وله في حواراته مع الشعراء أخبار يطول ذكرها.

هذا وإن الحديث في هذا المقام سيدور حول جوانب من مروءة شاعر من الشعراء المعاصرين الذين يعيشون بين ظهرانينا؛ فهو شاعر مشهور، له حظوته وحضوره

عند القاصي والداني، فقد صاحب عامة الناس، وخاصتهم، ونازل أكابر الشعراء ومن دونهم، وجال في فنون عدة من أغراض الشعر، وعلى رأسها فن المحاورة الذي يحتاج إلى حدة ذكاء، وحضور بديهة، وسرعة رد، وقوة نقض.

وقد أسعده في ذلك عمره الطويل، ومزاجه المعتدل، وترفعه عن القيل والقال.

والشعر الذي برز فيه شاعرنا هو الشعر النبطي السائد في الجزيرة العربية القريب في كثير من معانيه ومبانيه من الشعر العربي الفصيح.

والمعنيُّ ههنا هو الشاعر الكبير أحمد بن ناصر الشايع المعروف في المملكة ودول الخليج منذ العقد الثاني بعد منتصف القرن الرابع عشر الهجري إلى يومنا هذا.

فهذا الرجل أعرفه منذ أن شببت عن الطوق، فهو من بلدنا الزلفي، وقد عرفته من خلال زيارته لوالدي رحمه الله ومن خلال المناسبات العامة، وعبر وسائل الإعلام المختلفة.

ثم توطدت علاقتي به منذ ما يزيد على عقدين من الزمان؛ حيث كثرت لقاءاتي به، وذلك من خلال المناسبات، أو الزيارات المتبادلة، أو الجلسات الخاصة.

وقد عرف الناس عن هذا الرجل تواضعه لهم، وقربه منهم، ووجاهته بينهم، وترفعه عن المهاترات، وبُعْدُه عن الوقيعة في الناس.

ولهذا لا تراه يُعرف في غرض الهجاء، ولا تكاد تظفر له بقصيدة من ذلك القبيل.

ولقد تقلب شاعرنا في أطوار شتى؛ فبدأ حياته في تلقي مبادئ العلم حاله كحال بعض أقرانه؛ حيث قرأ القرآن الكريم، وتعلم القراءة والكتابة في الزلفي على يد الشيخ عبدالله السحيمي رحمه الله.

وما لبث أن سعى في طلب الرزق، فذهب بصحبة خاله فهد اليحيى رحمه الله إلى الجوف -شمالي المملكة- قاصدين الأمير عبدالعزيز ابن أحمد السديري، وكان عمره آنذاك خمس عشرة سنة، فرأى بعضَ الشعراء يتحاورون، فصار ينسج على منوالهم، فأعجب به الأمير عبدالعزيز، ورغب في مكثه عنده.

وما لبث أن برع في الشعر، خصوصاً شعر المحاورة، فكان من أبرز الشعراء فيه.

وقد حباه الله صوتاً جميلاً، وطول نَفَس، وحسن إلقاء للشعر.

وبعد ذلك طارت شهرته، وذاع صيته إلى أن استقر به المقام عند الملك سعود بن عبدالعزيز رحمه الله فكان من خاصة ندمائه، وممن يصحبه في حِلّه وترحاله، ثم صحب الأمير محمد بن عبدالعزيز رحمه الله فكان من خاصة خاصته إلى أن توفي عام ١٤٠٩هـ.

وله في تلك المرحلة أخبار طريفة يطول ذكرها، وقد سمعت كثيراً منها من شاعرنا نفسه.

وبعد ذلك انتهى به الحال إلى الرغبة في الاستقرار؛ حيث صار ينتقل ما بين مقري إقامته في الرياض، وفي مسقط رأسه الزلفي.

والحديث ـ كما مر ـ ليس عن سيرة شاعرنا، بقدر ما هو حديث عن جوانب مروءته مما يناسب هذا المقام.

والحقيقة أن تلك الجوانب متعددة، وقلَّ أن تجدها في شاعر في مثل منزلة شاعرنا أبي محمد.

ومن تلك الجوانب المشرقة في سيرته ترفعه عن الحسدِ، وحبٍّ الاستئثار بالخير دون غيره.

وما من ريب أن التنافس على الحظوة عند الملوك والخلفاء والأمراء والوجهاء هو دأب الشعراء منذ القدم، والتاريخ حافل بما يكون بين شعراء البلاط من تنافس، وتحاسد، وتغاير، وتربص، ووشايات، وأحوال يطول ذكرها، وقد تفضي تلك الأحوال إلى التسبب بالإقصاء، والطرد، وربما القتل.

وما أخبار ما جرى لأبي تمام، والمتنبي، ولسان الدين ابن الخطيب، وغيرهم من الشعراء والأدباء عنا ببعيد.

وقل أن يشذَّ عن تلك القاعدة أحد من أولئك، فيكونَ بعيداً عن تلك الأدواء.

أما صاحبنا فقد سلمه الله من ذلك؛ فلم يكن لِيَدْخُلَ في منافسات من ذلك القبيل، أو يحسد أحداً من أقرانه على حظوته أو قربه من الأكابر.

بل الأمر عكس ذلك؛ فقد كان يحب أقرانه، ويتمنى لهم الخير، بل كان يشفع لكثير منهم؛ كي يكون له صحبة أو قرب ممن يصحبهم من الأكابر.

وله في ذلك قصص وأخبار سمعتها منه مباشرة، ولم يكن ليقولها على سبيل تعداد الأيادي، أو المنة، وإنما تأتي عرضاً، وفي مناسبات تقتضي الحديث عن مثل ذلك.

ثم إنه لا يستنكف عن رواية أخبار أقرانه مع الأكابر، بل كان يذكرها دائماً على سبيل الإعجاب بهم.

ولم يكن ـ كذلك ـ يستكثر ما ينالهم من الخير، بل ربما شفع في سبيل إيصاله لهم.

بل كان يشفع لمن دونهم، وربما ناله إحراج من جراء ذلك، وقد سمعت منه طرفاً من ذلك.

أما شفاعاته لسائر الناس في نحو الوظائف، وحل المشكلات فحدث ولا حرج.

وأعرف عنه أخباراً كثيرة من هذا القبيل، وقد سمعت بعضها ممن شفع لهم.

وقد قلت له في يوم من الأيام: يا أبا محمد لقد شفعتَ لفلان من الناس في تلك الوظيفة، وهو يدعو لك دائماً، وقد طرح الله على يديه الخير الكثير في ذلك المجال الذي يعمل به بسبب شفاعتك؛ فلعل ذلك كله في ميزان حسناتك.

فقال: لعل، ولكني لا أذكر ذلك، ولم أفعل شيئاً يستحق أن يدعى لي من أجله، ولو كان ذلك صحيحاً لما كان كثيراً؛ فأهلك وأحبابك لهم حق كبير عليك، ومهما فعلت من أجلهم فهو قليل جداً.

ومن مظاهر مروءته تواضعه الجم للصغير والكبير بالرغم من شهرته الواسعة.

ويتجلى ذلك في تلبيته للدعوات التي توجه إليه، فكان يحضر مناسبات الناس، ويشاركهم أفراحهم وأتراحهم، ويزور الكبار والصغار.

ومن تواضعه قلة حديثه عن نفسه، أو مفاخرته بشعره، فضلاً عن أن يدعي ما ليس فيه.

كما كان يجيب من سأله عن بعض أخباره، أو أشعاره، أو محاوراته، ولو كان السائل صغيراً، أو غير معروف له، أو كان ممن ليست له مكانة.

ومن مظاهر مروءته محافظته على أدب المجلس؛ فلم يعرف بسفه القول، أو الوقيعة في الناس، بل كان يكره ذلك، ولا يرتاح له.

كما كان حسن الاستماع لِمُحادِثِه، حلو الحديث والمحاضرة؛ إذ كان يأخذ بالألباب إذا ساق خبراً، أو قصة؛ فكان يمضي الوقت سريعاً دون أن يشعر الحاضرون بذلك.

ولديه أخبار كثيرة طريفة مع الملوك، والأمراء، وعن الشعراء الذين نازلهم، أو سبقوه.

وتجده عنده من أخبار أولئك ما لا تكاد تجده عند غيره.

وقد سمعت منه مباشرةً الكثير من تلك الأخبار، كأخبار شعراء الحجاز الكبار، مثل: لافي العوفي، وحاسن المطرفي، وعلي بن عايد، وغيرهم.

ومن مظاهر مروءته إنصافه لأقرانه، بل ومنهم دونه في السن والمنزلة بمراحل؛ فلا تراه يتنقص أحداً منهم، بل إنك لَتَعْجَبُ من كثرة ثنائه عليهم، وإذا لم يرُقْهُ أحدٌ منهم لم يقل فيه سوءًا، وإنما يعرض، أو يجيب إجابة مجملة إذا سئل عن رأيه بأحد من أولئك.

ومن مظاهر مروءته عزة نفسه، فلم يكن من ذوي التملق، وبذل ماء الوجه.

وهذا سر من أسرار كونه يعيش عيشة أوساط الناس، أو أقل.

كل ذلك مع أنه قد صاحَبَ الملوك، والأمراء، وذوي الثروة والسخاء.

بل ربما ضاق عليه الرزق في بعض الأحيان، وربما أشير عليه أن يذهب إلى فلان أو فلان؛ فإنه سيسعد بإكرامك؛ فلا تجد منه إلا التمنع، والرفض.

ويذكر لي ابنه الفاضل البار فهد أخباراً كثيرة من هذا القبيل.

وكنت أمازحه كثيراً، وأقول له: أنت يا أبا محمد تصاحب من تصاحب لله، لا تريد بذلك جزاءً ولا شكوراً.

ومن تلك المظاهر حياؤه، وكراهيته لإحراج منازليه في المحاورة، فإذا تَسَفَّه الخصم لم يجاره في سفهه، وإذا أريد منه منازلة بعض مَنْ يعجبون بأنفسهم بادرهم بأبيات يعجزون عن مجاراته فيها، فينتهي الأمر دون جلبة، أو مهاترة.

ومما حدثني به في ذلك الشأن قوله: في يوم من الأيام كنت قادماً من المدينة النبوية في صحبة الملك سعود رحمه الله فلما وصلنا الرياض وقبل أن أدخل في بيتي لقيني أحد الأصحاب فقال: نريدك هذه الليلة؛ فعندنا شعراء أعجزونا، وأتعبوا الشعراء، وكأنهم يرون أن لا أحد يستطيع مجاراتهم.

فقلت: أنا الآن قادم من سفر، وأريد دخول منزلي، ورؤية أهلي؛ فما كان من صاحبي إلا أن ألح علي، بل وصل به الحال أن حملني من على الأرض، وأركبني معه في السيارة، فاستسلمت له، وذهبت معه.

ولما رأيت الناس مجتمعة، ورأيت الشعراء متأهبين ـ لم أرغب في إحراجهم، وإطالة الرد معهم، فطلبت منهم أن يبدؤوا، فقالوا: ابدأ أنت، فقلت أبياتاً تحتوي على شيء من الصعوبة حتى أنهي المحاورة من أولها، حيث قلت:

أنا ويا العرب نوب صوب ونوب ماحنا جميع
خطا كشف الغطا واسمعوا فالاوله والتاليه
مقاديم الدهر ثوب شوب وثوب من برد الربيع
قطا ومرنقطا والرخيصة مثل بيع الغالية

ويَلْزَم الشاعر الذي يريد الرد أن ينسج على منوال ما قيل، فيأتي ببيتين على نفس الوزن والقافية والأقفال التي وضعها الشاعر الذي بدأ المحاورة.

وهكذا تستمر المحاورة بيتين بيتين.

يقول شاعرنا: فحاولوا أن ينسجوا على منوال البيتين فلم يفلحوا، حينها استأذنت، ورجعت إلى منزلي.

ومن مروءته اعتذاره لزملائه الشعراء؛ وذلك إذا بدر منهم خطأ، أو كلام مُوْهِم، أو فُهِم من شعرهم إساءة أونحوها؛ فتراه يبادر إلى الاعتذار لهم، وإزالة اللبس، وحمل الكلام على المحمل الحسن؛ كيلا يقع أحد من أولئك في الحرج.

ومن مروءته وفاؤه لمسقط رأسه، وحبه لأهل بلده، وأصدقاء صباه، وأنسه بكبارهم وصغارهم؛ حيث كان له مجلس بعد مغرب كل يوم، يأتيه كل من يرغب في زيارته إذا كان مقيماً في الزلفي.

وفي الفترة الأخيرة كانت مدة إقامته في الرياض تطول؛ بسبب مراجعة المستشفيات، أو المكث فيها؛ فكان يتشوق كثيراً إلى الزلفي، ويلتمس أدنى فرصة للمجيء إليها.

وفي آخر زياراته للزلفي بعد مرض طويل، وانقطاع عن الزلفي دام ما يزيد على سنة، وذلك في عيد الفطر عام ١٤٣٥هـ ـ اجتمع كثير من أحبابه لاستقباله، ففرح بهم أيما فرح، بل قال لهم: أنتم أغلى عندي من صحتي.

وقد زرته في اليوم الرابع من أيام ذلك العيد، وجلست معه من بعد المغرب إلى ما بعد العشاء، وكانت ـكعادة مجالسهـ جلسة ماتعة رائعة.

ومن مروءته ترفعه ـكما مرـ عن الهجاء، والنيل من أعراض الناس، بل كان يبغض ذلك أشد البغض.

وهذا من أسباب محبة الناس له، واقتداء أكثر الشعراء عندنا بسيرته تلك.

ومن مظاهر مروءته إيناسه لمن يجالسونه، وفرحه بالقادمين إليه، ومقابلتهم بما يليق بهم من التحية ومحاسن الكلام.

وكان ذلك محل إكبارٍ من كثير من الزائرين من العلماء والوجهاء وغيرهم.

ولم يكن ذلك الإيناس قاصراً على القادمين إليه، بل إنه شامل حتى لأولاده وأهل بيته؛ فلهم نصيب غير منقوص من مزاحه، ولطفه، ومحاسن كلامه، وترحيبه.

ويذكر لي ابنه الأستاذ فهد عجباً من ذلك، وهذا مما زاد من حبهم له، وقربهم منه.

ومن مروءته أنه يعيش واقعه بعيداً عن الأحلام والخيالات التي يعيشها كثير من الشعراء؛ فهم من أصحاب أخيلة، وتوهيمات.

وذلك مما يلقي بظلاله على حياتهم الشخصية.

أما أبو محمد فهو بخلاف ذلك؛ فهو يعيش واقعه، ويقبله على ما فيه دون خيال حالمٍ.

ومن مروءته صبره وقلة تشكيه، واعتداله في السراء والضراء.

وأذكر أنه لما مات ابنه الأكبر الشاعر محمد رحمه الله في حادث سيارة أعلمني الأخ الأستاذ عبدالرحمن بوفاة أخيه، حيث توفي في الرياض، ورغب أن أخبر والده بذلك، فلما أخبرته ـ وكان خبراً شديداً عليه ـ فما كان منه إلا أن حمد الله، واسترجع ودعا لابنه، وقال: أكبر همي الآن أولاد محمد؛ فقلت له: أنت أبوهم من قبل ومن بعد، وأنت عوضهم بعد الله، فما زاد على الحمد، والاسترجاع.

وهكذا كان شأنه قبل ذلك بسنوات لما توفي ابنه عبدالعزيز رحمه الله في حادث سيارة.

وكذلك كانت حاله بعد أن توفي ابنه بدر قبل سنتين وهو في ريعان شبابه وصحته؛ حيث استقبل خبر وفاته بصبر واحتساب.

ثم إنه تعرض لبعض الأزمات الصحية التي تلزمه الفراش، أو تستدعي دخوله المستشفى، وقد تكون الأزمة شديدة، وقد يدخل بسببها العناية المركزة.

وإذا زرتَه وجدتَ الأنس، والحمد، والشكر، والبعد عن الشكوى، بل تجده يمازح الزائرين، ويتقبل مزاحهم؛ فترى ـ من أجل ذلك ـ كثرة توافد الزائرين، ورغبتهم في الجلوس عنده.

بل إنه قد يطلب منهم ذلك.

وأذكر أنني زرته أنا والشيخ عبدالله بن سليمان العواد في أحد مستشفيات الرياض بعد عصر أحد أيام رمضان عام ١٤٣٤هـ، ولم يخطر ببالي إلا أن تكون الزيارة ربع ساعة تزيد أو تنقص قليلاً، بل كنت على موعد للإفطار عند ابن أخٍ لي، فطال بنا الحديث عند أبي محمد، وكلما هممنا بتوديعه قال: اجلسوا قليلاً، حتى قرب المغرب، فقال: آمل أن تفطروا معي، فقلت نحن على موعد، فقال اعتذروا، وألح علينا، فاعتذرنا من صاحبنا، وما خرجنا من عنده إلا وقت صلاة العشاء، وكان ابنه الأستاذ عبدالرحمن ـ حفظه الله ـ عنده.

وكان يحرص على صلاة الجماعة، والتبكير لها، وتلاوة القرآن الكريم.

وكان حسن الصوت بالقرآن، وقد حدثني أحد الأئمة الذين أَمَّوا المسجد الذي يصلي فيه أنه كان يقترب من أبي محمد ليسمع تلاوته.

وكما أن المروءة ظاهرة في سيرة شاعرنا المحبوب ـ فهي كذلك في شعره؛ فشعره طافح بالمروءة، وما يدخل في قبيلها من الحث على الرفق، ولزوم الأناة، والدعوة إلى مكارم الخلال ومحاسن الشيم.

وله في ذلك أبيات كثيرة جرت مجرى الحكمة والأمثال.

ويحفظ محبوه الكثير من هذا القبيل.

فهذه لُمَعٌ من مروءة شاعرنا الكبير الذي لا يعرف أكثر الناس عنه إلا الشعر فحسب.

وهذا شيء من أسرار محبة الناس على اختلاف طبقاتهم، ومحافظته على تلك المكانة طيلة عمره المديد.

بارك الله في محب الجميع أبي محمد، وبارك في أولاده الكرام البررة.

صداقة أخوين

سئل حكيم: أيهما أحبُّ إليك: أخوك أو صديقك؟

فأجاب: أخي إذا كان صديقي.

وما من ريب أن الصداقة بين الإخوة من أنفع الصداقات، وأدومها وأقواها.

والحديث ههنا عن أخوين جسَّدا هذا المعنى تماماً؛ ذلك أن صداقتهما تبلغ ما يزيد عن خمس وثمانين عاماً قابلة للزيادة؛ إذ هما لا يزالان إلى حين كتابة هذه السطور على قيد الحياة، وبكامل قواهما العقلية.

وصداقة هذين الأخوين تحمل في طياتها ضروباً من العجب والعبرة من حيث رسوخُها، وثباتُها، ووهجُها، وطهارتها.

وفيما يلي ذكر لبعض دقائق تلك الصداقة، وأسرارها، وأخبارها.

أما بطلاها فهما الأخوان الشقيقان الشيخان عبدالله وسليمان ابنا عبدالمحسن القشعمي من أسرة القشعمي المعروفة في الزلفي.

أما الشيخ عبدالله فهو الأكبر، وهو مولود عام ١٣٣١هـ وهو طالب علم، وقد تعلم في مقتبل عمره، وحفظ القرآن، وتلقى بعض مبادئ الشريعة، وتولى الإمامة في جامع الثوير -إحدى ضواحي الزلفي- مدة خمس وستين سنة، وله أولاد وحفدة كرام بررة.

وهو ذو صلاح وعفاف وتقىً منذ نشأته إلى يومنا هذا.

وكان يخطب في مسجده، ويصلي الفروض فيه، إلى أن ترك الإمامة، وجاء إلى وسط المدينة في الزلفي قبيل سنوات.

وعمره الآن مائة وخمس سنوات، وهو لا يزال - بحمد الله - بصحة جيدة؛

فهو يسير على قدميه، ويستحضر ذكرياته القديمة، ويصلي الصلوات الخمس كلها في المسجد، بل يصلي التراويح والقيام جميعها، ويقرأ القرآن دون عناء أو مشقة.

وله أحوال عجيبة في العبادة، وله أخبار وذكريات يطول ذكرها.

كما أنه ذو مزاج معتدل، وروح مرحة، وبديهة حاضرة، وكان سماحة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله يمازحه إذا زار الزلفي قادماً من عنيزة.

ومن مزاحه معه أن قال له ذات مرة: يا شيخ عبدالله! ضاحيتكم اسمها: الثوير، فلماذا صغرتموها؟ لماذا لم تكن الثور؟

فأجابه الشيخ عبدالله على البديهة قائلاً: أحسن الله عملك ياشيخ محمد ضاحيتنا هذه صغيرة ويناسبها اسم الثوير، لكن بلدكم كبيرة، وهي بلد العلماء، والوجهاء، ومع ذلك فإن اسمها: عنيزة؛ فهي أولى بالعجب!

فضحك الشيخ محمد، وقال: صحيح ولو سكتُّ لسلمتُ.

ومما يدل على أريحية الشيخ عبدالله أنه رغم كبر سنه فإنه يحمل معه جوالاً خاصاً يرد به على المتصلين، ويتصل بمن يريد التواصل معهم، مع أن الجوال لم يوجد إلا بعد طعنٍ في السن.

وكثيراً ما يتصل عليَّ أو على غيري إذا استبطأنا، أو إذا وجد مكالمة لم يُرَدَّ عليها.

والحقيقة أن الكلام على سيرته وأخباره يطول ـ كما مر ـ والمقام ههنا ليس مقام الحديث في هذا الشأن.

وإنما يدور حول صداقته مع أخيه سليمان، وما فيها من ضروب المروءة والمكارم.

أما أخوه سليمان فهو من مواليد عام ١٣٤٥هـ، وعمره الآن يزيد على تسعين عاماً.

وهو ـ ولله الحمد ـ ممتع بحواسه تماماً، ويقوم بشؤونه بنفسه، وله أولاد وأحفاد كرام بررة.

كما أنه من الأجواد المعروفين بالكرام، وملازمة فتح الباب، وإطعام الطعام، وإكرام الضيوف، والعطف على المساكين، وله جلسة يومية تبدأ من بعد طلوع الشمس إلى وقت الضحى، وقد تمتد إلى الضحى الأكبر في بعض الأحيان.

ويتخللها إعداد القهوة، ووجبة الإفطار للقادمين كل يوم، مع فرح، وتطلق، وسرور بالقادم، وقيام بإعداد القهوة بنفسه، وهذا دأبه منذ سنوات طويلة.

كما أنه من العباد الصالحين الملازمين للمسجد، وتلاوة القرآن، والتبكير جداً للجمع والجماعات.

والحديث ـ أيضاً ـ ليس عن سيرته وإنما هو عن جانب الصداقة بينه وبين أخيه الشقيق عبدالله الذي ليس له أخ غيره، ولهما أخت شقيقة أصغر منهما توفيت منذ فترة قريبة ـ رحمها الله ـ.

وهذه الأخت تسكن في الرياض، ويزورانها معاً بين الفينة والأخرى.

أما والدهما فقد توفي رحمه الله عام ١٣٨٢هـ، وهو من أهل الصلاح والعبادة.

فالصداقة بين هذين الأخوين عجيبة غريبة، وحسب المقام ههنا أن يتناول طرفاً منها؛ فالشيخ عبدالله يكبر أخاه سليمان بأربع عشرة سنة؛ لذا فإن الشيخ سليمان يعامل أخاه الأكبر معاملة الولد لوالده تماماً، بل لا تبالغ إذا قلت: إنه

يعامله كأشد ما تكون المعاملة من الولد لوالده، وذلك من جهة الحب، والبر، والإشفاق، والملاحظة، والملازمة، والرعاية، والاهتمام بأحواله؛ حيث يكاد يكون اهتمامه الأكبر منصباً على أخيه عبدالله.

أما الشيخ عبدالله فإنه يحب أخاه سليمان حبًّا جمًّا، ولا يخرج عن رأيه، ولا يأنس أكثر ما يأنس في حضره أو سفره إلا بالقرب من أخيه.

ومن مظاهر ذلك أن سليمان ـ كما مر ـ لديه جلسة يومية بعد الفجر، وهي على فترتين: الأولى تبدأ بعد الصلاة مباشرة، ويأتي من يأتي ويتناول القهوة، ويجلس إلى قرب طلوع الشمس، ثم ينصرف من ينصرف، ويبقى سليمان في مجلسه مع من يبقون.

وبعد ذلك بقليل تبدأ الجلسة الثانية، حيث يتخللها القهوة، ومن ثم الإفطار.

أما حاله مع أخيه في تلك الجلسة فهي أن الشيخ عبدالله يسكن في ضاحية الثوير التي تبعد عن وسط الزلفي بأربعين كيلو متر، وكان يأتي يومياً بعد صلاة الفجر إلى مجلس أخيه سليمان، وكان يأتي بصحبة أحد أولاده أو أحفاده، أو أحد الناس ممن يأتون من الثوير إلى الزلفي؛ وكان يجلس الجلسة الأولى مع أخيه، ثم يذهب إلى مكان خاص به في بيت أخيه سليمان؛ ليأخذ قسطاً من الراحة، ثم يأتي بعد ذلك إلى الجلسة الثانية.

وكان هذا هو البرنامج اليومي.

ورغبة من سليمان في مزيد من راحة أخيه قام أحد أولاد سليمان بتخصيص سيارة خاصة، وسائق خاص يأتي به يومياً من الثوير، ويرجعه إليها.

وفي الفترة الأخيرة انتقل عبدالله إلى منزل في الزلفي خصوصاً بعدما ترك الخطابة والإمامة، فصار يأتي على نحو ما ذكر.

وإذا تأخر عبدالله عن المجيء في موعد الإفطار، قلق أخوه سليمان، وصار يرقب باب المجلس بين الفينة والأخرى، وإذا زاد التأخر خرج من البيت، وصار ينظر في الشارع يمنة ويسرة؛ حتى يأتي أخوه.

وهذا عدا ما يكون من الولائم أو الرحلات العارضة، أو المناسبات الخاصة.

وإذا حضر عبدالله إلى المجلس استقبله أخوه سليمان وقبل رأسه، وأجلسه في صدر المجلس، ثم صار يباشر خدمته من نحو تقديم القهوة، أو التمر، أو الماء، أو الطيب، ثم صار يحادثه، ويستمع له.

بل إن سليمان إذا ابتدر قصة أو حديثاً ثم شرع أخوه عبدالله بحديث آخر ـ خصوصاً بعدما ثقل سمعه ـ سكت سليمان، وترك ما شرع به من حديث حتى ينقضي حديث أخيه عبدالله.

بل إنه يستمطر أخاه الحديث، ويستطعمه إياه، ولا يمل من كثرة ما يسمعه من الأحاديث المكررة.

بل ينصت لها إنصات المستمع لها لأول مرة، وربما فتح على أخيه، أو استفهمه، أو أضاف إليه.

وإذا ارتفع الضحى ذهب عبدالله إلى منزله.

أما في رمضان فإن عبدالله يلازم الإفطار كل يوم عند أخيه سليمان، ولا يرضى أن يفطر عند أحد غيره.

وفي يوم العيد يتناولان طعام العيد معاً، ثم يستقبلان المهنئين بالعيد.

وكان سليمان لا يهنأ بطعامه إلا إذا كان أخوه عبدالله حاضراً.

مع أن أبناء عبدالله بل وأحفاده من البررة الذين يتنافسون على خدمته.

ولكنهم رأوا أن راحة والدهم بذلك؛ فتركوه وما يريد.

وربما غلبوه على أمره في بعض الأحيان، فاستضافوه، ولكن الأغلب على أحواله ما ذكر.

ويحدثني صديقي وزميلي الشيخ عبدالمحسن بن عبدالله القشعمي في رمضان عام ١٤٣٥هـ، وكان مقر عمله وإقامته في الرياض ـ قائلاً: لما قدمت الزلفي ألححت على والدي أن يفطر معي ولو يوماً واحداً، فرفض بشدة، وقال: أترك أخي سليمان؟!

بل إن الشيخ عبدالله إذا كان في بيته بين أبنائه خصوصاً بعد المغرب واستأذنه أحدهم بأنه سيذهب إلى عمه سليمان ـ فرح أيما فرح، وقال: من أراد البر بي فليلزم مجلس عمه سليمان.

وإذا كان في مائدة طعام جلس سليمان إلى جوار أخيه عبدالله، وصار يجاذبه أطراف الحديث، ويدني إليه ما يشتهيه من الطعام حتى ينصرفا عن المائدة.

فهذا هو برنامجه اليومي مع أخيه، مع زيادة رحلة إلى مزرعة أخيه سليمان؛ للغداء، وذلك كل يوم خميس، ثم صارت كل يوم سبت؛ حيث تبدأ منذ الساعة العاشرة صباحاً؛ حيث يخرج سليمان من منزله بصحبة أحد أبنائه إلى

منزل أخيه عبدالله، فإذا وصل المنزل نزل وسلم على أخيه، وقبل رأسه، وأركبه في السيارة، ثم ركب وراءه، وجعل يحادثه إلى أن يصلوا إلى المزرعة.

ومن أحوال تلك الصداقة أن سليمان يأتي على عادته مبكراً يوم الجمعة، حيث يأتي بعد طلوع الشمس بوقت ليس بالطويل، وإذا أتى إلى المسجد صار يعنى بمكان أخيه عبدالله في المسجد، ويضع له كرسياً خاصاً بجانبه قرب الإمام، ثم يصلي ما شاء الله له أن يصلي، وعينه ما بين الفينة والأخرى على مكان أخيه.

وقد لاحظته يفعل ذلك أكثر من مرة.

بل سألته مرة ماذا تصنع، فقال: هذا مكان أخي عبدالله، ثم يسألني: هل هو مناسب؟ فأقول له: أخوك كبير سن وقدر، فضعه في أقرب مكان؛ فلن يلومك أحد.

ثم إذا جاء أخوه عبدالله للمسجد استقبله، وقبَّل رأسه، ثم أجلسه في مكانه الذي أعدَّه له، ثم صار يرمقه بين الفينة والأخرى إلى أن تقام الصلاة.

أما إذا سافر مع أخيه لحج أو عمرة فحدث ولا حرج عن الرعاية، والملاحظة، والخدمة.

ويحدثني الشيخ الصديق قشعمي بن سليمان القشعمي بعد إحدى رحلات والده وعمه إلى الحج أنهما افترقا في طواف الوداع، فجاء عمه قبل والده، فصار عمه يتحفز، ويسأل عنه.

يقول الشيخ قشعمي: ولما أقبل أبي هجم كل واحد منهما على الآخر وكأنهما لم يريا بعضاً منذ أعوام، وتعانقا طويلاً، وبكيا مليًّا، وكل واحد منهما يقول للآخر: أخي، أخي.

وقد سألت الشيخ عبدالله عن سر تلك العلاقة فتحدث عن ذلك، ومن ضمن ما قاله أن والده قبيل وفاته قال له: أحضر أخاك سليمان، ثم قال: أوصيكما بالألفة، والاجتماع، وأن تتركوا كل أمرٍ قد يؤدي إلى خصومة بينكما أو بين أحد من الناس.

ومن ضمن ما يقول عبدالله: لم نتكلم بربع كلمة عند اقتسامنا لما نملكه معاً، ووالله لا أذكر في حياتي أني وجدتُ على أخي سليمان أو وجد علي، أو حدث بيننا خلاف.

بل إنه يسمي أولادي، وأسمي أولاده دون اعتراض أو تردد.

والله إني لا أستطيع تعداد أفضال أخي سليمان عليَّ، ولا أستطيع أن أكافئه عليها إلا بالدعاء له.

هذا وإن أخبار هذه العلاقة بين هذين الأخوين لمضرب مثل عندنا في الزلفي، وهي معروفة مشهورة، وإذا قدم قادم إلي أو إلى غيري من بعض الأحبة خصص وَقْتُ ما بعد الفجر لزيارة ذلك المجلس، فيرون من هذين الأخوين ما ينقضي منه العجب.

وكثيراً ما يُطلب من الشيخ عبدالله إعادة قصة أول حج له عام ١٣٥٣هـ، وأنه كان يسير خلف الملك عبدالعزيز رحمه الله لما طعن وهو يطوف بالكعبة، فيذكر ما جرى أمام ناظره، وما كان من الملك سعود رحمه الله لما هجم على الجاني، وأبعده عن والده.

كما يذكر الشيخ عبدالله أخباراً كثيرة في صباه، وتعلمه للقرآن، وتعليمه له، وما مر من شدة، وشظف عيش.

فهذه إشارات ومعالم عامة لتلك العلاقة العظيمة التي ما كان لها أن تستمر هذه الأزمان المتطاولة لولا فضل الله ، ثم كون طرفيها على درجة عالية من الزكاء ، والصفاء ، والتسامح ، والتغافر ، والتغاضي ، والترفع عن السفاسف والمحقرات.

لذا عاشا سعيدين متعاونين ، وسرت تلك السعادة إلى أولادهما وأحفادهما ، ومن خالطهما من قريب أو بعيد.

وهذا سر من أسرار الصلة ، والمحبة الصادقة التي من بركاتها بسط الرزق ، وطول العمر ، وطيب العيش ، وصلاح الذرية.

ولو حَلّت بساحتهما الخصومات والمشاحنات لقضوا الحياة شقاوةً وخمولاً ، ولأورثوا أولادهما تركةً تنوء كواهلهم بحملها.

وكلُّ امرئٍ يولي الجميل محبب وكلُّ مكانٍ ينبت العز طيبُ

ضَرَّةٌ أمٌّ

هذا العنوان يحمل في طياته عجباً، فهو يحكي قصة امرأة تعيش بين ظهرانينا؛ وهذه المرأة تزوجت برجل؛ فرزقت منه بأولاد أفاضل.

وبعد سنوات اقترن زوجها بامرأة أخرى هي في سن أولاده من زوجته الأولى تقريباً.

ورزقت الثانية بأربعة أولاد وثلاث بنات، ثم توفيت -رحمها الله-، وتركت هؤلاء الصغار.

وبعد عدة سنوات توفي زوجها ﷺ، وبقي هؤلاء الصغار بلا أب ولا أمٍّ؛ فما كان من زوجة أبيهم الكبيرة بالسن إلا أن قامت بدور الأب والأم لهؤلاء الأولاد؛ فلم تنظر إليهم على أنهم أولاد ضرتها -كما ينظر ذلك بعض مَنْ رقَّ دينهن، أو هزلت مروءتهن-.

وإنما نظرت إليهم على أنهم أولادٌ لزوجها، وإخوان لأولادها، وأنهم -زيادة على ذلك- يتامى يحتاجون إلى الرعاية، والعطف؛ فما كان من تلك المرأة الصالحة إلا أن أشرقت عليهم بحنانها، وصارت ترعاهم كرعايتها لأولادها أو أشد.

وقد وَقَفْتُ على كثير من أخبار تلك المرأة -حفظها الله-، وطلبت من ابنها الأكبر -وهو من أفاضل الناس فضلاً ومروءة- أن يزودني بكثير من أخبار والدته مع إخوانه وأخواته لأبيه؛ فزودني مشكوراً -بعد إلحاح- بشيء من ذلك مكتوباً.

بل طلبت من بعض إخوانه لأبيه أن يذكروا لي بعض أحوالهم مع زوجة أبيهم؛ حيث جلست معهم، وسألتهم بعض الأسئلة؛ فأجابوني مشكورين

عما سألتهم؛ ثم كتبوا لي فيما بعد ما تيسر لهم - كما سيأتي - فاجتمع لي من جراء ذلك قدر يستحق أن يشاد به، وأن يكون محل تقدير وقدوة.

هذه المرأة يزيد عمرها على السبعين عاماً، وأولاد زوجها من ضرتها تتراوح أعمارهم الآن ما بين الرابعة عشرة إلى الثالثة والعشرين تقريباً.

وأكثرهم لا يكادون يذكرون أمَّهم؛ نظراً لأنها توفيت وهم صغار؛ فما كانت أعينهم تقع إلا على زوجة أبيهم.

يحدثني الابن الأكبر من جملة ما يحدثني به عن حال والدته مع إخوانه لأبيه فيقول: إنها تعيش معهم تربية مستمرة؛ حيث بقيت معهم، وسكنت عندهم، فكانوا يحنون لحضنها، ويأنسون بقربها.

وكانت تضاحكهم، وتؤنسهم، وتسعد بهم، وتقوم بكافة ما يحتاجون إليه من الخدمة، وإعداد الطعام، واللباس، ومراعاة المشاعر، والصبر على ما يكون منهم مما هو من طبيعة الصغار عموماً.

ويضيف الابن الأكبر - أيضاً - أن والدته لم تكن تنام إلا بجوار إخوانه لأبيه، بل لا يأتيها النوم حتى تراهم جميعاً في أماكن نومهم.

وكانت تُعنى كثيراً بشأن صَلاتهم وإيقاظهم لها، وتحفيزهم على المواظبة عليها.

وكانت حريصة جداً على دراستهم، وتميزهم، وتفوقهم؛ حيث تُعنى بتهيئة الجو الملائم لهم، فتحرص على نومهم مبكرين، وتقوم بإعداد الإفطار لهم، وتسألهم بصورة مستمرة عن دروسهم، ومذاكرتهم، وتقول: هل عندكم واجبات، هل ذاكرتم؟ هل حفظتم؟ أين شهاداتكم وتقاريركم؟ أروني إياها؛ فكانوا إذا خرجت نتائجهم سلموها لها - وهي عامية لا تقرأ ولا تكتب - فتأخذ نتائجهم وتسلمها لنا - نحن إخوانهم الكبار من أبيهم - فإذا رأينا النتائج، وقرأناها

عليها ـوكانت دائماً ما تكون نتائج طيبةـ فرحت بذلك أيما فرح؛ فكانوا يتنافسون على إسعادها في ذلك.

بل كانت تحثهم على الانشطة الطلابية، والمشاركة فيها، وتسألهم: ماذا قدمتم؟ وما مدى مشاركتكم الإذاعية؟ وما شأن مشاركتكم في مسرح إدارة التعليم؟ وأين جوائزكم؟.

ويضيف ابنها الأكبر أن اهتمام والدته لم يقتصر على اهتمامها بهم في دراستهم النظامية فحسب، بل تعدى ذلك إلى متابعتهم في سيرتهم مع الناس، وفي دراستهم في حلقات القرآن، ودروس العلم في المساجد، فكانت تتابعهم في حفظ القرآن، وتتفقدهم في الحضور، وترسل الرسائل وتبعث الوصايا لمعلميهم بضرورة الاهتمام بهم، والحرص على حفظهم وسلوكهم.

وكانت تكافئ من يعتني بهم، وتدعو له، وتشعره بعلمها وحرصها.

أما التواصل معهم إذا خرجوا من المنزل فحدِّث ولا حرج؛ حيث تتصل بهم الواحد تلو الآخر، وتسأله: أين أنت؟ ومتى ستأتي، وإذا تأخر قالت له: لقد تأخرت، أنا بانتظارك، ولن أنام حتى تأتي.

وكان ذلك الاهتمام مُبَلَّلاً بندى المودة، وشذى الشفقة؛ فكانوا يأنسون بذلك الاهتمام، ولا يشعرون معه بثقل أو تذمر.

ولقد كان من جَرَّاء ذلك خير عظيم؛ حيث كان الأكبر من هؤلاء الأولاد في الصف السادس لما فقد والديه، والآن قد تخرج من الجامعة، وأحدى البنات قد تزوجت.

وأصغرهم الذي كان في السنة الأولى الابتدائية هو الآن في الصف الثاني الثانوي.

وجميعهم يسيرون سيرة حميدة، ولم يعهد عليهم سلوك سيِّئ، بل لم يعرفوا إلا بالذكر الحسن، والتميز بالأدب، والتفوق في الدراسة.

كما أنهم على تواصل طيب مع القريب، والبعيد، وبعضهم حفظ القرآن الكريم كاملاً، وتولى إمامة أحد المساجد، كما حصلوا على جوائز من جمعية التحفيظ.

ويواصل الأخ الأكبر حديثه عن بعض أخبار والدته مع إخوانه لأبيه، فيقول: إنها على تواصل تام معهم حتى بعدما كبروا، بل إن تواصلها معهم مستمر جداً، بل إنه ليزيد على تواصلها بنا -نحن أولادها- فصار إخوتي وإخواتي لأبي هُمْ حياتها، فلا تستطيع العيش بدونهم.

وكانت كثيراً ما توصيهم بوصايا كثيرة، فتقول لهم: اللهَ اللهَ بطاعة الله، لا تؤذوا أحداً من الناس، بادروا من تلاقونه بالسلام، اعرفوا من تجالسون ومن تصاحبون، لا تسرعوا في قيادة السيارة، احترموا أنظمة المرور، صِلُوا أرحامكم، اذهبوا معاً للسلام عليهم.

كما أن لها جلسة رسمية مع أولادها وأحفادها، وأولاد زوجها كل عصر، ويتخلل ذلك المجلس قصص هادفة، وأحاديث نافعة، وذكر لمواقف ذات عبر.

وهي تقوم بذلك بلذة، وفرح، وصبر، واحتساب.

وقد أراها الله ثمرة تلك التربية الحانية الحازمة؛ فكان من شأن أولئك الأولاد ما كان، وصاروا يعدونها أمًّا لهم، لا يطيقون بعداً ولا صبراً عنها.

هذا بعض ما حدثني به الابن الأكبر عما كان من أمر والدته مع إخوانه لأبيه.

وبعد هذا الحديث رغبت في لقيا بعض إخوانه لأبيه؛ لأسألهم عن أحوالهم مع زوجة أبيهم؛ وعن نظرتهم لها، ونظرتها لهم، فحصل لقاء معهم، ودار حديث حول ذلك، وطلبت منهم -زيادة على ما حصل في اللقاء- أن يكتبوا بعض ما لديهم من خواطر، وإضافات وأخبار؛ فكتبوا شيئاً من ذلك مع شدة حيائهم واعترافهم من أنهم لن يستطيعوا أن يوفوا المقام حقه.

ومن ضمن ما أكده أحدهم وكتبه لي -وهو إمامٌ وحافظٌ للقرآن- أن قال: «إنها بالنسبة لنا كل شيء من حياتنا، لا نبصر الدنيا إلا من خلال عينيها، ولا نتصور أن نعيش بدونها ولو يوماً واحداً؛ فلقد كانت تأنس بقربنا، وتحزن لفراقنا.

وأذكر أنني أخبرتها بأننا سنذهب في سفر مع الحلقة مدَّة أسبوع، فحزنت حزناً شديداً، ونظمت أبياتاً بالعامية تعبر عن لوعتها لفراقنا.

وكانت لا تسمح لنا بالخروج من المنزل لغير سبب؛ لخوفها علينا من أصحاب السوء.

وإذا مرض أحد منا فإنها تلازمه، وتقوم على رعايته، وتحرص عليه حرصاً شديداً عجيباً، وتتألم لآلامه، وكأنها هي المريضة.

وإذا كنا خارج المنزل فإنها تتابع الاتصال بنا، ولا يهدأ لها بال حتى نعود».

وسألته: ما حالكم إذا سَافَرَتْ؟ فقال: «نحن نسافر معاً للعمرة أو غيرها».

فقلت له: وإذا سافرت وأنتم مقيمون؛ فما حالكم؟ فقال: «لا تسأل عن هذا وإنما سلني عن دون ذلك».

فقلت له: وما الذي دون ذلك؟ فقال: «إذا ذهبت لزيارة أهلها الذين هم في نفس بلدنا والمسافة قريبة بيننا».

فقلت له: وماذا يكون؟ الأمر يسير.

فقال: «هو يسير في النظرة الأولى لمن لا يعرف حقيقة الأمر، أما بالنسبة لنا فشاقٌّ عسير؛ فنحن ننتظرها إذا خرجت على أحر من الجمر، ونتصل بها حتى تعود.

أما أشق ما مر بنا في حياتنا من هذا القبيل فهو لما مرضت أخت لها، ولزمت أحد مستشفيات الرياض مدة؛ فذهبت من الزلفي إلى الرياض، ورافقت أختها مدة خمسة عشر يوماً؛ فكانت تلك الأيام من أصعب ما مر بنا؛ فكأن البيت ليس فيه أحد، وكنا لا نهنأ بطعام، ولا نوم بالرغم من أنها تتصل بنا كل يوم أكثر من مرة.

وعندما عادت من مرافقة أختها عادت لنا الحياة، وكنا مشتاقين لها أشد الشوق، وهي كذلك».

ويواصل ذلك الأخ حديثه عن زوجة أبيه، فيقول: «كانت تحرص على إعداد أفضل الطعام لنا، وعلى جميع ما يرضينا ويسعدنا.

وكانت تحثنا على الصلاة وحضور مجالس العلم.

وإذا أتينا من سفر استقبلتنا بكل شوق وود، وتقول مقولتها الشهيرة عندنا: (ما عرفنا بلياكم).

ووالله ما شعرنا بفقد أبينا ولا أمنا في ظل كنفها الرحيم، ورعاية أبنائها إخواننا الكبار الذين يعاملوننا كمعاملة أبنائهم أو أشد».

وسألت أخاً آخر لذلك الأخ عن حالهم مع زوجة أبيهم فأجاب بنفس إجابة أخيه السابقة، ومما قاله عن زوجة أبيه: «إنها تحاول إسعادنا بما تستطيع، وتبحث عن رضانا بكل جهدها.

وكانت تحب قربنا من مجالس العلم، والمشايخ، وإذا استأذنتها لسفر قريب وافقت وهي كارهة.

وقبل فترة قلت لها: إنني ذاهب إلى القصيم ففزعت، وقالت: مع من؟

فقلت مع شيخي وأستاذي فلان، فَفَرِحَت واطمأنت، وقالت: حفظكم الله، واستفد منه في طريقك».

هذا وقد سمعت من غير أفراد تلك الأسرة الكريمة أخباراً كثيرة عجيبة من نحو ما ذكر وزيادة.

ومن طريف ما سمعته من بعض المشايخ الذين يعرفون تلك الأسرة تماماً أن تلك الأم الحانية إذا سافرت أو ذهبت إلى أهلها أصابهم ما أصابهم من جراء فقدها -كما مر- ولا يسلي بعضهم عن ذلك الفراق إلا أن يأخذ عباءة صلاتها؛ فيتغشاها؛ لعله يجد شيئاً من ريحها؛ فيذهب عنه بعض ما يجده من برحاء.

وبعد فهذه سيرة حميدة حية تنبئ عن ديانة ومروءة، وتعطي صورة جميلة عن بعض قيمنا، وتَمَثُّلِ ما يأمرنا به ديننا من هذه المكارم السامية الذرا.

كما أنها ترسم لوحة جميلة لتلك الأسرة النبيلة؛ من جهة حنان الأم ورحمتها، وإيثارها، ومن جهة وفاء أولاد زوجها، وعدِّها أُمًّا لهم.

بل ومن جهة أولاد تلك الأم؛ حيث حدبوا على إخوانهم الصغار اليتامى، وأعانوا أمهم على القيام بشؤونهم، ولم يجدوا في صدورهم حاجة مما يرونه من قيام أمهم بشأن إخوانهم لأبيهم، بل وانصرافها شبه التام عنهم إلى إخوانهم؛

فتلك مكارم ينادي بعضها على بعض، ومآثر يشهد بعضها لبعض ﴿ وَمَنْ يُـوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ ﴾.

﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾.

الفهرس